كليلة ودمنة

تأليف

ابن المقفّع

الناشر

شركة نوابغ الفكر



تأليف

ابن المقفّع

الناشر

شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨

الناشر
شركة نوابغ الفكر
للنشر والتوزيع والتصدير
عمارة ١٩ القطامية (القاهرة)
هاتف:٢٥٩٣٦٤٠٢ ،٢٥٩٣٦٤٠٢ فاكس:٢٥٩٣٦٢٧٧
e-mail: nawabgh_elfakr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كلية ودمنة/ تاليف : ابن المقفع
- ط ١ - القاهرة : شركة نوابغ الفكر ٢٠٠٨
٣٢٠ ص : ٢٤ سم
تدمك :978-977-6305-06-9
أ- القصص الهندية
ب- العنوان .

ديوى :891/43

رقم الايداع :2008/11788

بسم الله الرحمن الرحيم

باب مقدمة الكتاب

قدمها بهنود بن سحوان، ويعرف بعلي بن الشاه الفارسي، ذكر فيها السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه (كليلة ودمنة)، وجعله على ألسن البهائم والطير صيانةً لغرضه فيه من العوام، وضنًّا بما ضمنه عن الطغام؛ وتنزيهًا للحكمة وفنونها، ومحاسنها وعيونها؛ إذ هي للفيلسوف مندوحة، ولخاطره مفتوحة؛ ولمحبيها تثقيف، ولطالبيها تشريفٌ.

وذكر السبب الذي من أجله أنفذ كسرى أنوشروان بن قبَّاذ بن فيروز ملك الفرس برزويه رأس الأطباء إلى بلاد الهند كتاب (كليلة ودمنة)؛ وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند؛ حتى حضر إليه الرجل الذي استنسخه له سرًّا من خزانة الملك ليلًا، مع ما وجد من كتب علماء الهند.

وقد ذكر الذي كان من بعثه برزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل هذا الكتاب؛ وذكر فيها ما يلزم مطالعه من إتقان قراءته، والقيام بدراسته، والنظر إلى باطن كلامه؛ وأنه إن لم يكن كذلك لك يحصل على الغاية منه.

وذكر فيها حضور برزويه قراءة الكتاب جهرًا.

وقد ذكر السبب الذي من أجله وضع بزرجمهر بابًا مفردًا يسمى باب برزويه الطبيب، وذكر فيه شأن برزويه من أول أمره وآن مولده إلى أن بلغ التأديب، وأحب الحكمة واعتبر في أقسامها.

وجعله قبل باب الأسد والثور الذي هو أول الكتاب.

قال علي بن الشاه الفارسي: كان السبب الذي من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كتاب (كليلة ودمنة)، أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لما فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب، سار يريد ملوك الشرق من الفرس وغيرهم؛ فلم يزل يحارب مَن نازعه، ويواقع من واقعه، ويسالم من وادعه من ملوك الفرس، وهم الطبقة الأولى، حتى ظهر عليهم وقهر من ناوأه، وتغلب على من حاربه؛ فتفرقوا طرائق، وتمزقوا خرائق؛ فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين؛ فبدأ في طريقه بملك الهند؛ ليدعوه إلى طاعته، والدخول في ملته وولايته.

وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس وقوة ومراس، يقال له: فورٌ.

فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربته، واستعد لمجاذبته؛ وضم إليه أطرافه، وجدَّ في التألب عليه؛ وجمع له العدة، في أسرع مدة، من الفيلة المعدة للحروب، والسباع المضراة بالوثوب؛ مع الخيول المسرجة، والسيوف القواطع، والحراب اللوامع.

فلما قرب ذو القرنين من (فور) الهندي، وبلغه ما أعد له من الخيل، التي كأنها قطع الليل مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا في الأقاليم، تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجل المبارزة.

وكان ذو القرنين رجلًا ذا حيل ومكايد، مع حسن تدبير وتجربة، فرأى إعمال الحيلة والتمهل، واحتفر خندقًا على عسكره؛ وأقام بمكانه لاستنباط

الحيلة والتدبير لأمره؛ وكيف ينبغي له أن يقدم على الإيقاع به، فاستدعى بالمنجمين، وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه.

فاشتغلوا بذلك.

وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف.

فأنتجت له همته ودلته فطنته أن يتقدم إلى الصناع الذين معه في أن يصنعوا خيلًا من نحاس مجوفة، عليها تماثيل من الرجال، على بكرٍ تجري، إذا دفعت مرت سراعًا.

وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت؛ وتلبس وتقدم أمام الصف في القلب.

ووقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها النيران.

فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية -ولت هاربة، وأوعز إلى الصناع بالتشمير والانكماش والفراغ منها.

فجدُّوا في ذلك وعجلوا.

وقرب أيضًا وقت اختيار المنجمين.

فأعاد ذو القرنين رسله إلى (فور) بما يدعوه إليه من طاعته، والإذعان لدولته.

فأجاب جواب مصر على مخالفته، مقيمٍ على محاربته.

فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأهبته؛ وقدم (فور) الفيلة أمامه، ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان؛ فأقبلت الفيلة نحوها، ولفت خراطيمها عليها.

فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها، وداستهم تحت أرجلها، ومضت مهزومة هاربة، لا تلوي على شيء، ولا تمر بأحدٍ إلا وطئته.

وتقطع (فور) وجمعه، وتبعهم أصحاب الإسكندر؛ وأثخنوا فيهم الجراح.

وصاح الإسكندر: يا ملك الهند ابرز إلينا، وأبق على عدتك وعِيالك، ولا تحملهم على الفناء؛ فإنه ليس من المروءة أن يرمي الملك بعدته في المهالك المتلفة، والمواضع المجحفة، بل يقيهم بماله ويدافع عنهم بنفسه.

فأبرز إلى ودع الجند، فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد.

فلما سمع (فور) من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه لملاقاته طمعًا فيه؛ وظن ذلك فرصةً.

فبرز إليه الإسكندر فتجاولا على ظهري فرسيهما ساعات من النهار ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصةً؛ ولم يزالا يتعاركان.

فلما أعيا الإسكندر أمره، ولم يجد له فرصةً ولا حيلة، أوقع ذو القرنين في عسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض والعساكر؛ فالتفت (فورٌ) عندما سمع الزعقة، وظنها مكيدة في عسكره؛ فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه، وتبعه بأخرى؛ فوقع على الأرض.

فلما رأت الهند ما نزل بهم، وما صار إليه ملكهم؛ حملوا على الإسكندر، فقاتلوه قتالًا أحبوا معه الموت.

فوعدهم من نفسه الإحسان، ومنحه الله أكتافهم؛ فاستولى على بلادهم، وملك عليه رجلًا من ثقاته.

وأقام بالهند حتى استوثق مما أراد من أمرهم واتفاق كلمتهم؛ ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم.

مضى متوجهًا نحو ما قصد له.

فلما بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه، تغيرت الهند عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم؛ وقالوا: ليس يصلح للسياسة، ولا ترضى الخاصة والعامة أن يملكوا عليهم رجلًا ليس هو منهم، ولا من أهل بيوتهم؛ فإنه لا يزال يستذلهم ويستقلهم.

واجتمعوا يملكون عليهم رجلًا من أولاد ملوكهم؛ فملكوا عليهم ملكًا يقال له: دبشليم؛ وخلعوا الرجل الذي كان خلفه عليهم الإسكندر.

فلما استوسق له الأمر، واستقر له الملك.

وكان مع ذلك مؤيدًا مظفرًا منصورًا، فهابته الرعية.

فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة، عبث بالرعية، واستصغر أمرهم، وأساء السيرة فيهم.

وكان لا ترتقي حاله إلا ازداد عتوًا.

فمكث على ذلك برهة من دهره، وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة، فاضلٌ حكيمٌ، يعرف بفضله، ويرجع في الأمور إلى قوله، يقال له بيدبا.

فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، فكر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه، ورده إلى العدل والإنصاف؛ فجمع لذلك تلاميذه، وقال: أتعلمون ما أريد أن أشاوركم فيه؟ اعلموا أني أطلت الفكرة في دبشليم، وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر، ورداءة السيرة وسوءِ العشرة مع الرعية؛ ونحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك، إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العدل.

ومتى أغفلنا ذلك، وأهملناه لزم وقوع المكروه بنا، وبلوغ المحذورات إلينا؛ أن كنا في أنفس الجهال أجهل منهم؛ وفي العيون عندهم أقل منهم.

وليس الرأي عندي الجلاء عن الوطن.

ولا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه من سوء السيرة، وقبح الطريقة، ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا.

ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته. وإن أحس منا بمحالفته، وإنكارنا سوء سيرته كان في ذلك بوارنا.

وقد تعلمون أن مجاورة السبع، والكلب، والحية، والثور على طيب الوطن، ونضارة العيش -لغدرٍ بالنفس.

وإن الفيلسوف لحقيقٌ أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور؛ ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب.

ولقد كنت أسمع أن فيلسوفًا كتب لتلميذه يقول: إن مجاورة رجال السوء والمصاحبة لهم كراكب البحر: إن سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف.

فإذا هو أورد نفسه موارد المهلكات ومصادر المخوفات، عُدَّ من الحمير التي لا نفس لها؛ لأن الحيوان البهيمية قد خصت في طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع وتتوقى المكروه؛ وذلك أننا لم نرها تورد أنفسها موردًا فيه هلكتها.

وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها، مالت بطبائعها التي ركبت فيها - شحًّا بأنفسها وصيانةً لها- إلى النفور والتباعد عنه، وقد جمعتكم لهذا الأمر؛ لأنكم أسرتي، ومكان سري، وموضع معرفتي؛ وبكم أعتضد، وعليكم أعتمد.

فإن الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه حيث كان فهو ضائع ولا ناصر له.

على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود.

والمثل في ذلك أن قنبرةً اتخذت أدحيةً وباضت فيها على طريق الفيل؛ وكان للفيل مشرب يتردد إليه.

فمر ذات يوم على عادته؛ ليرد مورده فوطئ عش القنبرة؛ وهشم بيضها وقتل فراخها.

فلما نظرت ما ساءها، علمت أن الذي نالها من الفيل لا من غيره.

فطارت فوقعت على رأسه باكيةً؛ ثم قالت: أيها الملك لِمَ هشمت بيضي وقتلت فراخي، وأنا في جوارك؟ أفعلت هذا استصغارًا منك لأمري، واحتقارًا لشأني؟ قال: هو الذي حملني على ذلك.

فتركته وانصرفت إلى جماعة الطير؛ فشكت إليها ما نالها من الفيل.

فقلن لها: وما عسى أن نبلغ منه ونحن الطيور؟ فقالت للعقاعق، والغربان: أحب منكن أن تصرن معي إليه فتفقأن عينيه؛ فإني أحتال له بعد ذلك بحيلةٍ أخرى.

فأجبنها إلى ذلك، وذهبن إلى الفيل، ولم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما.

وبقي لا يهتدي إلى طريق مطعمه ومشربه إلا ما يلقمه من موضعه.

فلما علمت ذلك منه، جاءت إلى غدير فيه ضفادع كثير، فشكت إليها ما نالها من الفيل.

قالت الضفادع: ما حيلتنا نحن في عظم الفيل؟ وأين نبلغ منه.

قالت: أحب منكن أن تصرن معي إلى وهدةٍ قريبةٍ منه، فتنققن فيها، وتضججن؛ فإنه إذا سمع أصواتكن لم يشكَّ في الماء فيهوي فيها.

فأجبنها إلى ذلك؛ واجتمعن في الهاوية، فسمع الفيل نقيق الضفادع، وقد أجهده العطش، فأقبل حتى وقع في الوهدة، فاعتطم فيها.

وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه؛ وقالت: أيها الطاغي المغتر بقوته المحتقر لأمري، كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثتي عند عظم جثتك وصغر همتك؟ فليشر كل واحد منكم بما يسنح له من الرأي.

قالوا بأجمعهم: أيها الفيلسوف الفاضل، والحكيم العادل، أنت المقدم فينا، والفاضل علينا، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك، وفهمنا عند فهمك؟ غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التماسيح تغريرٌ؛ والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه.

والذي يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه؛ ليجربه جانٍ على نفسه، فليس الذنب للحية.

ومن دخل على الأسد في غابته لم يأمن من وثبته.

وهذا الملك لم تفزعه النوائب، ولم تؤدبه التجارب.

ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته، وإنا نخاف عليك من سورته ومبادرته بسوءٍ إذا لقيته بغير ما يحب.

فقال الحكيم بيدبا: لعمري لقد قلتم فأحسنتم، لكن ذا الرأي الحازم لا يدع أن يشاور من هو دونه، أو فوقه في المنزلة.

والرأي الفرد لا يكتفي به في الخاصة، ولا ينتفع به في العامة.

وقد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم.

وقد سمعت مقالتكم؛ وتبين لي نصيحتكم، والإشفاق عليّ وعليكم.

غير أني قد رأيت رأيًا وعزمت عزمًا؛ وستعرفون حديثي عند الملك ومجاوبتي إياه فإذا اتصل بكم خروجي من عنده فاجتمعوا إليّ، وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة.

ثم إن بيدبا اختار يومًا للدخول على الملك؛ حتى إذا كان ذلك الوقت ألقى عليه مسوحه وهي لباس البراهمة؛ وقصد باب الملك، وسأل عن صاحب إذنه، وأرشد إليه وسلم عليه؛ وأعلمه، وقال له: إني رجل قصدت الملك في نصيحةٍ.

فدخل الآذن على الملك في وقته؛ وقال: بالباب رجلٌ من البراهمة يقال له: بيدبا، ذكر أن معه للملك نصيحة.

فأذن له؛ فدخل ووقف بين يديه وكفر، وسجد له، واستوى قائمًا وسكت.

وفكر دبشليم في سكوته؛ وقال: إن هذا لم يقصدنا إلا لأمرين: إما لالتماس شيءٍ منا يصلح به حاله، وإما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقةٌ.

ثم قال: إن كان للملوك فضلٌ في مملكتها فإن للحكماء فضلًا في حكمتها أعظم؛ لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم، وليس الملوك أغنياء عن الحكماء بالمال.

وقد وجدت العلم والحياء إلفين متآلفين لا يفترقان: متى فقد أحدهما لم يوجد الآخر؛ كالمتصافيين إن عدم منهما أحد لم يطب صاحبه نفسًا بالبقاء تأسفًا عليه.

ومن لم يستحِ من الحكماء ويكرمهم، ويعرف فضلهم على غيرهم، ويصنهم عن المواقف الواهنة، وينزههم عن المواطن الرذلة -كان ممن حرم عقله، وخسر دنياه، وظلم الحكماء حقوقهم، وعد من الجهال.

ثم رفع رأسه إلى بيدبا؛ وقال له: نظرت إليك يا بيدبا ساكتًا لا تعرض حاجتك، ولا تذكر بغيتك، فقلت: إن الذي أسكته هيبةٌ ساورته، أو حيرةٌ

أدركته؛ وتأملك عند ذلك من طول وقوفك، وقلت: لم يكن لبيدبا أن يطرقنا على غير عادةٍ عن سبب دخوله؛ فإن لم يكن من ضيمٍ ناله، كنت أولى من أخذ بيده وسارع في تشريفه، وتقدم في البلوغ إلى مراده وإعزازه؛ وإن كانت بغيته غرضًا من أغراض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحب؛ وإن يكن من أمر الملك، ومما لا ينبغي أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه -نظرت في قدر عقوبته؛ على أن مثله لم يكن ليجترئ على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك؛ وإن كان شيئًا من أمور الرعية يقصد فيه أني أصرف عنايتي إليهم، نظرت ما هو؛ فإن الحكماء لا يشيرون إلا بالخير، والجهال يشيرون بضده.

وأنا قد فسحت لك في الكلام.

فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ عنه روعه؛ وسرى عنه ما كان وقع في نفسه من خوفه وكفر له وسجد؛ ثم قام بين يديه، وقال: أول ما أقول لك أسأل الله تعالى بقاء الملك على الأبد، ودوام ملكه على الأمد؛ لأن الملك قد منحني في مقامي هذا محلًّا جعله شرفًا لي على جميع من بعدي من العلماء؛ وذكرًا باقيًا على الدهر عند الحكماء، ثم أقبل على الملك بوجهه، مستبشرًا به فرحًا بما بدا له منه، وقال: قد عطف الملك عليَّ بكرمه وإحسانه.

والأمر الذي دعاني إلى الدخول على الملك، وحملني على المخاطرة لكلامه، والإقدام عليه، نصيحةٌ اختصصته بها دون غيره.

وسيعلم من يتصل به ذلك أني لم أقصر عن غايةٍ فيما يجب للمولى على الحكماء.

فإن فسح في كلامي ووعاه عني، فهو حقيق بذلك وما يراه؛ وإن هو ألقاه، فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني.

قال الملك بيدبا تكلم كيف شئت: فإنني مصغٍ إليك، ومقبل عليك، وسامع منك، حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله.

قال بيدبا: إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوانات أربعة أشياء، وهي جماع ما في العالم، وهي: الحكمة، والعفة، والعقل، والعدل.

والعلم، والأدب، والروية داخلةٌ في باب الحكمة.

والحلم، والصبر، والوقار داخلةٌ في باب العقل.

والحياء، والكرم، والصيانة، والأنفة داخلةٌ في باب العفة.

والصدق، والإحسان، والمراقبة، وحسن الخلق داخلةٌ في باب العدل.

وهذه هي المحاسن، وأضدادها هي المساوئ.

فمتى كملت هذه في واحدٍ لم تخرجه الزيادة في نعمةٍ إلى سوء الحظ من دنياه، ولا إلى نقصٍ في عقباه، ولم يتأسف على ما لم يعن التوفيق ببقائه، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولك يدهش عند مكروه.

فالحكمة كنزٌ لا يفنى على إنفاقٍ، وذخيرةٌ لا يضرب لها بالإملاق، وحلة لا تخلق جدها، ولذةٌ لا تنصرم مدتها.

ولئن كنت عند مقامي بين يدي الملك أمسكت عن ابتدائه بالكلام، وإن ذلك لم يكن مني إلا لهيبته والإجلال له.

ولعمري إن الملوك لأهلٌ أن يهابوا؛ لا سيما من هو في المنزلة التي جل فيها الملك عن منازل الملوك قبله.

وقد قالت العلماء: الزم السكوت؛ فإن فيه سلامةً؛ وتجنب الكلام الفارغ؛ فإن عاقبته الندامة.

وحُكي أن أربعةً من العلماء ضمهم مجلس الملك، فقال لهم: ليتكلم كلٌّ بكلام يكون أصلًا للأدب.

فقال أحدهم: أفضل خلة العلم السكوت.

وقال الثاني: إن من أنفع الأشياء للإنسان أن يعرف قدر منزلته من عقله.

وقال الثالث: أنفع الأشياءِ للإنسان ألا يتكلم بما لا يعنيه.

وقال الرابع: أروح الأمور على الإنسان التسليم للمقادير.

واجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين، والهند، وفارس، والروم، وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل واحدٍ منا بكلمة تدون عنه على غابر الدهر.

فقال ملك الصين: أنا على ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت.

وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة فإن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه أوبقته .

وقال ملك فارس: أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها.

وقال ملك الروم: ما ندمت على ما لم أتكلم به قط، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيرًا.

والسكوت عند الملوك أحسن من الهذر الذي لا يرجع منه إلى نفع.

وأفضل ما استظل به الإنسان لسانه.

غير أن الملك، أطال الله مدته، لما فسح لي في الكلام، وأوسع لي فيه؛ كان أولى ما أبدأ به من الأمور التي هي غرضي أن يكون ثمرة ذلك له دوني؛ وأن اختصه بالفائدة قبلي.

على أن العقبى هي ما أقصد في كلامي له؛ وإنما نفعه وشرفه راجعٌ إليه؛ وأكون أنا قد قضيت فرضًا وجب عليّ، فأقول: أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك، وشيدوه دونك، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا البلاد، وقادوا الجيوش؛ واستجاشوا العدة، وطالت لهم المدة؛ واستكثروا من السلاح والكراع؛ وعاشوا الدهور، في الغبطة والسرور؛ فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر؛ ولا استعمال الإحسان إلى من خولوه، والإرفاق بمن ولوه، وحسن السيرة فيما تقلدوه؛ مع عظم ما كانوا فيه من غرة الملك، وسكرة الاقتدار.

وإنك أيها الملك السعيد جده، الطالع كوكب سعده، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم؛ فأقمت فيما خولت من الملك،

وورثت من الأموال والجنود؛ فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك؛ بل طغيت وبغيت، وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت منك البلية.

وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك، وتتبع آثار الملوك قبلك، وتقفو محاسن ما أبقوه لك، وتقلع عما عاره لازم لك، وشينه واقع بك؛ تحسن النظر برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ضره، ويعقبك الجميل فخره؛ ويكون ذلك أبقى على السلامة، وأدوم على الاستقامة.

فإن الجاهل المغتر من استعمل في أموره البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق؛ فانظر أيها الملك ما ألقيت إليك، ولا يثقلن ذلك عليك: فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرضٍ تجازيني به، ولا التماس معروفٍ تكافئني به؛ ولكني أتيتك ناصحًا مشفقًا عليك.

فلما فرغ بيدبا من مقالته، وقضى مناصحته، أوغر صدر الملك، فأغلظ له في الجواب استصغارًا لأمره؛ وقال: لقد تكلمت بكلامٍ ما كنت أظن أحدًا من أهل مملكتي يستقبلني بمثله، ولا يقدم على ما أقدمت عليه.

فكيف أنت مع صغر شأنك، وضعف منتك وعجز قوتك؟ ولقد أكثرت إعجابي من إقدامك عليَّ، وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك.

وما أجد شيئًا في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك..

فذلك عبرةٌ وموعظةٌ، لكن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت أنت من الملوك إذا أوسعوا لهم في مجالسهم.

ثم أمر به أن يقتل ويصلب.

فلما مضوا به فيما أمر، فكر فيما أمر به فأحجم عنه، ثم أمر بحبسه وتقييده.

فلما حبس أنفذ في طلب تلاميذه، ومن كان يجتمع إليه فهربوا في البلاد، واعتصموا بجزائر البحار؛ فمكث بيدبا في محبسه أيامًا لا يسأل الملك عنه، ولا يلتفت إليه؛ ولا يجسر أحدٌ أن يذكره عنده؛ حتى إذا كان ليلةٌ من الليالي سهد الملك سهدًا شديدًا؛ فطال سهده، ومد إلى الفلك بصره؛ وتفكر في تفلك الفلك، وحركات الكواكب، فأغرق الفكر فيه؛ فسلك به إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك، والمسألة عنه.

فذكر عند ذلك بيدبا، وتفكر فيما كلمه به؛ فارعوى لذلك.

وقال في نفسه: لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف، وضيعت واجب حقه؛ وحملني على ذلك سرعة الغضب.

وقد قالت العلماء: أربعةٌ لا ينبغي أن تكون في الملوك: الغضب؛ فإنه أجد الأشياء مقتًا، والبخل؛ فإن صاحبه ليس بمعذورٍ مع ذات يده، والكذب؛ فإنه ليس لأحدٍ أن يجاوره، والعنف في المحاورة؛ فإن السفه ليس من شأنها.

وإني أتى إليَّ رجل نصح لي، ولم يكن مبلغًا؛ فعاملته بضد ما يستحق، وكافأته بخلاف ما يستوجب.

وما كان هذا جزاءه مني؛ بل كان الواجب أن أسمع كلامه، وأنقاد لما يشير به.

ثم أنفذ في ساعته من يأتيه به.

فلما مثل بين يديه قال له: يا بيدبا ألست الذي قصدت إلى تقصير همتي، وعجزت رأيي في سيرتي بما تكلمت به آنفًا؟ قال له بيدبا: أيها الملك الناصح الشفيق، والصادق الرفيق، إنما نبأتك بما فيه صلاحٌ لك ولرعيتك، ودوام ملكك لك، قال له الملك: يا بيدبا أعد عليَّ كلامك كله، ولا تدع منه حرفًا إلا جئت به.

فجعل بيدبا ينثر كلامه، والملك مصغٍ إليه.

وجعل دبشليم كلما سمع منه شيئًا ينكت على الأرض بشيءٍ كان في يده.

ثم رفع طرفه إلى بيدبا، وأمره بالجلوس.

وقال له: يا بيدبا، إني قد استعذبت كلامك، وحسن موقعه من قلبي.

وأنا ناظر في الذي أشرت به، وعامل بما أمرت.

ثم أمر بقيوده فحُلَّت.

وألقى عليه من لباسه، وتلقاه بالقبول.

فقال بيدبا: يأيها الملك، إن في دون ما كلمتك به نهيةً لمثلك.

قال: صدقت أيها الحكيم الفاضل.

وقد وليتك من مجلسي هذا إلى جميع أقاصي مملكتي.

فقال له: أيها الملك أعفني من هذا الأمر؛ فإني غير مضطلعٍ بتقويمه إلا بك.

فأعفاه من ذلك.

فلما انصرف علم أن الذي فعله ليس برأي، فبعث فرده.

وقال: إني فكرت في إعفائك مما عرضته عليك فوجدته لا يقوم إلا بك، ولا ينهض به غيرك، ولا يضطلع به سواك؛ فلا تخالفني فيه.

فأجابه بيدبا إلى ذلك.

وكان عادة ملوك ذلك الزمان إذا استوزروا وزيرًا أن يعقدوا على رأسه تاجًا، ويركب في أهل المملكة، ويطاف به في المدينة.

فأمر الملك أن يفعل ببيدبا ذلك.

فوضع التاج على رأسه، وركب المدينة ورجع فجلس بمجلس العدل والإنصاف: يأخذ للدني من الشريف، ويساوي بين القوي والضعيف؛ ورد المظالم، ووضع سنن العدل، وأكثر من العطاء والبذل.

واتصل الخبر بتلاميذه فجاءوه من كل مكان، فرحين بما جدد الله له من جديد رأي الملك في بيدبا؛ وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة، واتخذوا ذلك اليوم عيدًا يعيدون فيه؛ فهو إلى اليوم عيدٌ عندهم في بلاد الهند.

ثم أن بيدبا لما أخلى فكره من اشتغاله بدبشليم، تفرغ لوضع كتب السياسة ونشط لها، فعمل كتبًا كثيرةً، فيها دقائق الحيل.

ومضى الملك على ما رسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل في الرعية.

فرغبت إليه الملوك الذين كانوا في نواحيه، وانقادت له الأمور على استوائها.

وفرحت به رعيته وأهل مملكته.

ثم أن بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صلتهم، ووعدهم وعدًا جميلًا.

وقال لهم: لست أشك أنه وقع في نفوسكم وقت دخولي على الملك أن قلتم: إن بيدبا قد ضاعت حكمته، وبطلت فكرته؛ إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغي.

فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري.

وإني لم آته جهلًا به؛ لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سورةٌ كسورة الشراب: فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ العلماء، وأدب الحكماء.

والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء.

والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم؛ ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج، والخروج عن العدل.

فوجدت ما قالت العلماء فرضًا واجبًا على الحكماء لملوكهم؛ ليوقظوهم من رقدتهم؛ كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد على صحتها، أو ردها إلى الصحة.

فكرهت أن يموت أو أموت وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه.

فإن قال قائل: إنه لم يمكنه كلامه خوفًا على نفسه، قالوا: كان الهرب منه ومن جواره أولى به؛ والانزعاج عن الوطن شديدٌ؛ فرأيت أن أجود بحياتي؛ فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذرًا.

فحملتها على التغرير، أو الظفر بما أريده.

وكان من ذلك ما أنتم معاينوه؛ فإنه يقال في بعض الأمثال: إن لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاثٍ: إما بمشقةٍ تناله في نفسه، وإما بوضيعةٍ في ماله، أو وكسٍ في دينه .

ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

وإن الملك دبشليم قد بسط لساني في أن أضع كتابًا فيه ضروب الحكمة.

فليضع كل واحد منكم شيئًا في أي فن شاء؛ وليعرضه عليَّ لأنظر مقدار عقله، وأين بلغ من الحكمة فهمه.

قالوا: أيها الحكيم الفاضل، واللبيب العاقل، والذي وهب لك ما منحك من الحكمة، والعقل، والأدب، والفضيلة -ما خطر هذا بقلوبنا ساعةً قط.

وأنت رئيسنا وفاضلنا، وبك شرفنا، وعلى يدك انتعاشنا.

ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت.

ومكث الملك على ذلك من حسن السيرة زمانًا يتولى ذلك له بيدبا، ويقوم به..

ثم إن الملك دبشليم لما استقر له الملك، وسقط عنه النظر في أمور الأعداء بما قد كفاه ذلك بيدبا، صرف همته إلى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة

الهند لآبائه وأجداده؛ فوقع في نفسه أن يكون له أيضًا كتابٌ مشروحٌ ينسب إليه، وتُذكر فيه أيامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله.

فلما عزم على ذلك، علم أنه لا يقوم ذلك إلا ببيدبا: فدعاه وخلا به؛ وقال له: يا بيدبا، إنك حكيم الهند وفيلسوفها.

وإني فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك قبلي؛ فلم أر فيهم أحدًا إلا وضع كتابًا يذكر فيه أيامه وسيرته، وينبئ عن أدبه وأهل مملكته؛ فمنه ما وضعته الملوك لأنفسها، وذلك لفضل حكمةٍ فيها؛ ومنها ما وضعته حكماؤها.

وأخاف أن يلحقني ما لحق أولئك مما لا حيلة لي فيه، ولا يوجد في خزائني كتابٌ أذكر به من بعدي، وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلي بكتبهم.

وقد أحببت أن تضع لي كتابًا بليغًا تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته؛ فيسقط بذلك عني وعنهم كثيرٌ مما نحتاج إليه في معاناة الملك.

وأريد أن يبقى لي هذا الكتاب من بعدي ذكرًا على غابر الدهور.

فلما سمع بيدبا كلامه خر له ساجدًا، ورفع رأسه وقال: أيها الملك السعيد جده، علا نجمك، وغاب نحسك، ودامت أيامك؛ إن الذي قد طبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل حركه لعالي الأمور؛ وسمت به نفسه وهمته إلى أشرف المراتب منزلةً، وأبعدها غايةً؛ وأدام الله سعادة الملك وأعانه على ما عزم من ذلك، وأعانني على بلوغ مراده.

فليأمر الملك بما شاء من ذلك: فإني صائرٌ إلى غرضه، مجتهد فيه برأيي.

قال له الملك: يا بيدبا لم تزل موصوفًا بحسن الرأي، وطاعة الملوك في أمورهم.

وقد اختبرت منك ذلك، واخترت أن تضع هذا الكتاب، وتعمل فيه فكرك، وتجهد فيه نفسك، بغاية ما تجد إليه السبيل.

وليكن مشتملًا على الجد والهزل، واللهو والحكمة والفلسفة.

فكفر له بيدبا وسجد، وقال: قد أجبت الملك أدام الله أيامه إلى ما أمرني به، وجعلت بيني وبينه أجلًا.

قال: وكم هو الأجل؟ قال: سنةٌ.

قال: قد أجلتك؛ وأمر له بجائزةٍ سنيةٍ تعينه على عمل الكتاب فبقي بيدبا مفكرًا في الأخذ فيه، وفي أي صورةٍ يبتدئ بها فيه وفي وضعه.

ثم إن بيدبا جمع تلاميذه، وقال لهم: إن الملك قد ندبني لأمر فيه فخري وفخركم وفخر بلادكم، وقد جمعتكم لهذا الأمر.

ثم وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب، والغرض الذي قصد فيه، فلم يقع لهم الفكر فيه، فلما لم يجد عندهم ما يريده، فكر بفضل حكمته، وعلم أن ذلك أمرٌ إنما يتم باستفراغ العقل، وإعمال الفكر؛ وقال: أرى السفينة لا تجري في البحر إلا بالملاحين؛ لأنهم يعدلونها؛ وإنما تسلك اللجة بمدبرها الذي تفرد بإمرتها؛ ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها لم يؤمن عليه من الغرق.

ولم يزل يفكر فيما يعمله في باب الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه، مع رجلٍ من تلاميذه كان يثق به؛ فخلا به منفردًا معه، بعد أن أعد الورق الذي كانت تكتب فيه الهند شيئًا، ومن القوت ما يقوم به وبتلميذه تلك المدة.

وجلسا في مقصورةٍ، وردا عليهما الباب، ثم بدأ في نظم الكتاب وتصنيفه؛ ولم يزل هو يملي وتلميذه يكتب، ويرجع هو فيه؛ حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام.

ورتب فيه أربعة عشر بابًا؛ كل بابٍ منها قائم بنفسه.

وفي كل باب مسألةٌ والجواب عنها؛ ليكون لمن نظر فيه حظٌّ من الهداية.

وضمن تلك الأبواب كتابًا واحدًا؛ وسماه كتاب (كليلة ودمنة)، ثم جعل كلامه على ألسن البهائم، والسباع، والطير؛ ليكون ظاهره لهوًا للخواص والعوام، وباطنه رياضةً لعقول الخاصة.

وضمنه أيضًا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه، وآخرته وأولاه؛ ويحضه على حسن طاعته للملوك، ويجنبه ما تكون مجانبته خيرًا له.

ثم جعله باطنًا وظاهرًا كرسم سائر الكتب التي برسم الحكمة: فصار الحيوان لهوًا، وما ينطق به حكمةً وأدبًا.

فلما ابتدأ بيدبا بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق، وكيف يكون الصديقان، وكيف تقطع المودة الثابتة بينهما بحيلة ذي النميمة.

وأمر تلميذه أن يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه في أن جعله لهوًا وحكمةً.

فذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام النقلة أفسدها وجهلت حكمتها.

فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك، حتى فتق لهما العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين.

فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم.

وكانت الحكمة ما نطقا به.

فأصغت الحكماء إلى حكمه، وتركوا البهائم واللهو، وعلموا أنها السبب في الذي وضع لهم.

ومالت إليه الجهال عجبًا من محاورة بهيمتين، ولم يشكوا في ذلك؛ واتخذوه لهوًا، وتركوا معنى الكلام أن يفهموه، ولم يعلموا الغرض الذي وضع له؛ لأن الفيلسوف إنما كان غرضه في الباب الأول أن يخبر عن تواصل الإخوان، كيف تتأكد المودة بينهم على التحفظ من أهل السعاية، والتحرز ممن يوقع العداوة بين المتحابين؛ ليجر بذلك نفعًا إلى نفسه.

فلم يزل بيدبا وتلميذه في المقصورة، حتى استتما عمل الكتاب في مدة سنةٍ.

فلما تم الحول أنفذ إليه الملك أن قد جاء الوعد، فماذا صنعت؟ فأنفذ إليه بيدبا: إني على ما وعدت الملك فليأمرني بحمله، بعد أن يجمع أهل المملكة؛ لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم، فلما رجع الرسول إلى الملك سُرَّ بذلك،

ووعده يومًا يجمع فيه أهل المملكة، ثم نادى في أقاصي بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب.

فلما كان ذلك اليوم، أمر الملك أن ينصب لبيدبا سريرٌ مثل سريره، وكراسي لأبناء الملوك والعلماء.

وأنفذ فأحضره.

فلما جاءه الرسول قام فلبس الثياب التي كان يلبسها إذا دخل على الملوك وهي المسوح السود، وحمل الكتاب تلميذه.

فلما دخل على الملك وثب الخلائق بأجمعهم، وقام الملك شاكرًا.

فلما قرب من الملك كفر له وسجد، ولم يرفع رأسه.

فقال له الملك: يا بيدبا ارفع رأسك؛ فإن هذا يوم هناءةٍ وفرحٍ وسرورٍ، وأمره أن يجلس.

فحين جلس لقراءة الكتاب، سأله عن معنى كل باب من أبوابه، وإلى أي شيءٍ قصد فيه.

فأخبره بغرضه فيه، وفي كل باب.

فازداد الملك منه تعجبًا وسرورًا.

فقال له: يا بيدبا ما عدوت الذي في نفسي؛ وهذا الذي كنت أطلب؛ فاطلب ما شئت وتحكم.

فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجد.

وقال: أيها الملك أما المال فلا حاجة لي فيه، وأما الكسوة فلا أختار على لباسي ذا شيئًا؛ ولست أخلي الملك من حاجةٍ.

قال الملك: يا بيدبا ما حاجتك؟ فكل حاجةٍ لك قبلنا مقضيةٌ.

قال: يأمر الملك أن يدون كتابي هذا كما دون آباؤه وأجداده كتبهم، ويأمر بالمحافظة عليه: فإن أخاف أن يخرج من بلاد الهند، فيتناوله أهل فارس إذا علموا به؛ فالملك يأمر ألا يخرج من بيت الحكمة، ثم دعا الملك بتلاميذه وأحسن لهم الجوائز.

ثم إنه لما ملك كسرى أنوشروان، وكان مستأثرًا بالكتب والعلم والأدب والنظر في أخبار الأوائل، ويقع له خبر الكتاب؛ فلم يقر قراره حتى بعث برزويه الطبيب وتلطف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقره في خزائن فارس.

بعثة برزويه إلى بلاد الهند

من الجائز أن يكون هنا سقطوكذلك طالب الآخرة مجتهد في العمل المنجي به روحه لا يقدر على إتمام عمله، وإكماله إلا بالعقل الذي هو سبب كل خير ومفتاح كل سعادةٍ.

فليس لأحد غنى عن العقل.

والعقل مكتسب بالتجارب والأدب.

وله غريزةٌ مكنونةٌ في الإنسان كامنةٌ كالنار في الحجر لا تظهر ولا يرى ضوءها، حتى يقدحها قادحٌ من الناس؛ فإذا قدحت ظهرت طبيعتها.

وكذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر، حتى يظهره الأدب وتقويه التجارب.

ومن رزق العقل ومُنَّ به عليه، وأُعِين على صدق قريحته بالأدب -حرص على طلب سعد جده، وأدرك في الدنيا أمله، وحاز في الآخرة ثواب الصالحين.

وقد رزق الله الملك السعيد أنوشروان من العقل أفضله، ومن العلم أجزله؛ ومن المعرفة بالأمور أصوبها، ومن الأفعال أسدها، ومن البحث عن الأصول والفرع أنفعه؛ ويلغه من فنون اختلاف العلم، وبلوغ منزلة الفلسفة، ما لم يبلغه ملكٌ قط من الملوك قبله؛ حتى كان فيما طلب وبحث عنه من العلم أن بلغه عن كتاب بالهند، علم أنه أصل كل أدب، ورأس كل علمٍ، والدليل على منفعةٍ، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها، ومرغبة النجاة من هولها؛ فأمر الملك وزيره بزرجمهر أن يبحث له عن رجل أديبٍ عاقل من أهل مملكته، بصير بلسان الفارسية، ماهر في كلام الهند؛ ويكون بليغًا باللسانين جميعًا، حريصًا على طلب العلم مجتهدًا في استعمال الأدب، مبادرًا في طلب العلم، والبحث عن كتب الفلسفة.

فأتاه برجلٍ أديب كامل العقل والأدب، معروفٍ بصناعة الطب، ماهر في الفارسية والهندي يقال له: بروزيه؛ فلما دخل عليه كفر وسجد بين يديه.

فقال له الملك: يا بروزيه: إن قد اخترتك لما بلغني من فضلك وعلمك وعقلك، وحرصك على طلب العلم حيث كان.

وقد بلغني عن كتاب بالهند مخزون في خزائنهم، وقص عليه ما بلغه عنه.

وقال له: تجهز فإني مرحلك إلى أرض الهند؛ فتلطف بعقلك وحسن أدبك وناقد رأيك؛ لاستخراج هذا الكتاب من خزائنهم ومن قبل علمائهم؛ فتستفيد بذلك وتفيدنا.

وما قدرت عليه من كتب الهند مما ليس في خزائننا منه شيءٌ فأحمله معك؛ وخذ معك من المال ما تحتاج إليه، وعجل ذلك، ولا تقصر في طلب العلوم وإن أكثرت فيه النفقة؛ فإن جميع ما في خزائني مبذول لك في طلب العلوم.

وأمر بإحضار المنجمين؛ فاختاروا له يومًا يسير فيه، وساعة صالحةً يخرج فيها.

وحمل معه من المال عشرين جرابًا؛ كل جرابٍ فيه عشرة آلاف دينار.

فلما قدم برزويه بلاد الهند طاف بباب الملك ومجالس السوقة، وسأل عن خواص الملك، والأشراف، والعلماء، والفلاسفة؛ فجعل يغشاهم في منازلهم، ويتلقاهم بالتحية، ويخبرهم بأنه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلوم والأدب، وأنه محتاج إلى معاونتهم في ذلك.

فلم يزل كذلك زمانًا طويلًا يتأدب عن علماء الهند بما هو عالم بجميعه؛ وكأنه لا يعلم منه شيئًا؛ وهو فيما بين ذلك يستر بغيته وحاجته.

واتخذ في تلك الحالة لطول مقامه أصدقاء كثيرةً من الأشراف، والعلماء، والفلاسفة، والسوقة، ومن أهل كل طبقة وصناعةٍ؛ وكان قد اتخذ من بين أصدقائه رجلًا واحدًا قد اتخذه لسره، وما يجب مشاورته فيه؛ للذي ظهر له من فضله وأدبه، واستبان له من صحة إخائه؛ وكان يشاوره في الأمور، ويرتاح إليه في جميع ما أهمه.

إلا أنه كان يكتم منه الأمر الذي قدم من أجله؛ لكي يبلوه ويخبره، وينظر هل هو أهل أن يطلعه على سره؟ فقال له يومًا وهما جالسان: يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري فوق الذي كتمتك.

فاعلم أنني لأمرٍ قدمت، وهو غير الذي يظهر مني؛ والعاقل يكتفي من الرجل بالعلامات من نظره؛ حتى يعلم سر نفسه، وما يضمره قلبه.

قال له الهندي: إني وإن لم أكن بدأتك وأخبرتك بما جئت له، وإياه تريد؛ وأنك تكتم أمرًا تطلبه، وتظهر غيره؛ ما خفي عليَّ ذلك منك.

ولكني لرغبتي في إخائك، كرهت أن أواجهك به.

وإنه قد استبان ما تخفيه مني.

فأما إذ قد أظهرت ذلك، وأفصحت به وبالكلام فيه، فإني مخبرك عن نفسك، ومظهر لك سريرتك، ومعلمك بحالك التي قدمت لها؛ فإنك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة، فتذهب بها إلى بلادك، وتسر بها ملكك.

وكان قدومك بالمكر والخديعة.

ولكني لما رأيت صبرك، ومواظبتك على طلب حاجتك، والتحفظ من أن يسقط منك الكلام، مع طول مكثك عندنا، بشيءٍ يستدل به على سريرتك وأمورك، ازددت رغبةً في إخائك، وثقةً بعقلك، فأحببت مودتك.

فإني لم أر في الرجال رجلًا هو أرصن منك عقلًا، ولا أحسن أدبًا، ولا أصبر على طلب العلم، ولا أكتم لسره منك؛ ولا سيما في بلاد الغربة، ومملكة غير مملكتك، عند قومٍ لا تعرف سُنَّتهم.

وإن عقل الرجل ليبين في ثماني خصال: الأولى الرفق، والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها، والثالثة طاعة الملوك، والتحري لما يرضيهم.

والرابعة معرفة الرجل موضع سره، وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه، والخامسة أن يكون على أبواب الملوك أديبًا ملق اللسان.

والسادسة أن يكون لسره وسر غيره حافظًا.

والسابعة أن يكون على لسانه قادرًا، فلا يتكلم إلا بما يأمن تبعته.

والثامنة إن كان بالمحفل لا يتكلم إلا بما يسأل عنه.

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي الخير إلى نفسه.

وهذه الخصال كلها قد اجتمعت فيك، وبانت لي منك.

فالله تعالى يحفظك، ويعينك على ما قدمت له؛ فمصادقتك إياي، وإن كانت لتسلبني كنزي وفخري وعلمي، تجعلك أهلًا لأن تسعف بحاجتك، وتشفع بطلبتك، وتعطى سؤلك.

فقال له بروزيه: إني كنت هيأت كلامًا كثيرًا، وشعبت له شعوبًا؛ وأنشأت له أصولًا وطرقًا؛ فلما انتهيت إلى ما بدأتني به من اطلاعك على أمري والذي قدمت له، وألقيته عليَّ من ذات نفسك، ورغبتك فيما ألقيت من القول - اكتفيت باليسير من الخطاب معك، وعرفت الكبير من أموري بالصغير من الكلام، واقتصرت به معك على الإيجاز.

ورأيت من إسعافك إياي بحاجتي ما دلني على كرمك، وحسن وفائك؛ فإن الكلام إذا ألقي إلى الفيلسوف، والسر إذا استودع إلى اللبيب الحافظ، فقد حصن وبلغ به نهاية أمل صاحبه، كما يحصن الشيء النفيس في القلاع الحصينة.

قال له الهندي: لا شيء أفضل من المودة، ومن خلصت مودته كان أهلًا أن يخلطه الرجل بنفسه، ولا يدخر عنه شيئًا، ولا يكتمه سرًّا: فإن حفظ السر رأس الأدب.

فإذا كان السر عند الأمين الكتوم فقد احترز من التضييع؛ مع أنه خليق ألا يتكلم به؛ ولا يتم سرٌّ بين اثنين قد علماه وتفاوضاه.

فإذا تكلم بالسر اثنان فلا بد من ثالث من جهة أحدهما؛ فإذا صار إلى الثلاثة فقد شاع وذاع، حتى لا يستطيع صاحبه أن يجحده ويكابر عنه؛ كالغيم إذا كان متقطعًا في السماء، فقال قائل: هذا غيمٌ متقطعٌ، لا يقدر أحدٌ على تكذيبه.

وأنا قد يداخلني من مودتك وخلطتك سرورٌ لا يدله شيءٌ.

وهذا الأمر الذي تطلبه مني أعلم أنه من الأسرار التي لا تكتم؛ فلا بد أن يفشو ويظهر، حتى يتحدث به الناس.

فإذا فشا فقد سعيت في هلاكي هلاكًا لا أقدر على الفداء منه بالمال وإن كثر؛ لأن ملكنا فظٌّ غليظٌ، يعاقب على الذنب الصغير أشد العقاب؛ فكيف مثل هذا الذنب العظيم؟ وإذا حملتني المودة التي بيني وبينك فأسعفتك بحاجتك لم يرد عقابه عني شيءٌ.

قال بروزيه: إن العلماء قد مدحت الصديق إذا كتم سر صديقه، وأعانه على الفوز.

وهذا الأمر الذي قدمت له، لمثلك ذخرته، وبك أرجو بلوغه؛ وأنا واثقٌ بكرم طباعك، ووفور عقلك، وأعلم أنك لا تخشى مني، ولا تخاف أن أبديه؛ بل تخشى أهل بيتك الطائفين بك وبالملك أن يسعوا بك إليه.

وأنا أرجو ألا يشيع شيءٌ من هذا الأمر؛ لأني أنا ظاعنٌ وأنت مقيمٌ، وما أقمت فلا ثالث بيننا.

فتعاهدا على هذا جميعًا.

وكان الهندي خازن الملك، وبيده مفاتيح خزائنه.

فأجابه إلى ذلك الكتاب وإلى غيره من الكتب.

فأكب على تفسيره ونقله من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي؛ وأتعب نفسه، وأنصب بدنه ليلًا ونهارًا.

وهو مع ذلك وجلٌ وفزعٌ من ملك الهند؛ خائفٌ على نفسه من أن يذكر الملك الكتاب في وقتٍ لا يصادفه في خزائنه.

فلما فرغ من انتساخ الكتاب وغيره مما أراد من سائر الكتب -كتب إلى أنوشروان يعلمه بذلك.

فلما وصل إليه الكتاب سُرَّ بذلك سرورًا شديدًا، ثم تخوف معاجلة المقادير أن تنغص عليه الفرحة؛ فكتب إلى بروزيه يأمره بتعجيل القدوم.

فسار بروزيه متوجهًا نحو كسرى.

فلما رأى الملك قد مسه من الشحوب والتعب والنصب، قال له: أيها العبد الناصح الذي كان يأكل ثمرة ما قد غرس، أبشر وقر عينًا؛ فإني مشرفك وبالغٌ بك أفضل درجةٍ.

وأمره أن يريح بدنه سبعة أيام.

فلما كان اليوم الثامن، أمر الملك أن يجتمع إليه الأمراء والعلماء.

فلما اجتمعوا، أمر برزويه بالحضور.

فحضر ومعه الكتب؛ ففتحها وقرأها على من حضر من أهل المملكة.

فلمّا سمعوا ما فيها من العلم فرحوا فرحًا شديدًا؛ وشكروا الله على ما رزقهم، ومدحوا برزويه وأثنوا عليه؛ وأمر الملك أن تفتح لبرزويه خزائن اللؤلؤ والزبرجد، والياقوت والذهب والفضة؛ وأمره أن يأخذ من الخزائن ما شاء من مالٍ أو كسوةٍ؛ وقال: يا برزويه إني قد أمرت أن تجلس على مثل سريري هذا، وتلبس تاجًا، وتترأس على جميع الأشراف.

فسجد برزويه للملك، ودعا له وطلب من الله، وقال: أكرم الله تعالى الملك كرامة الدنيا والآخرة، وأحسن عني ثوابه وجزاءه؛ فإني بحمد الله مستغنٍ عن المال بما رزقني الله على يد الملك السعيد الجد، العظيم الملك؛ ولا حاجة لي بالمال؛ لكن لما كلفني الملك ذلك وعلمت أنه يسره، أنا أمضي إلى الخزائن فآخذ منها طلبًا لمرضاته وامتثالًا لأمره.

ثم قصد خزانة الثياب، فأخذ منها تختًا من طرائف خراسان من ملابس الملوك.

فلما قبض بروزيه ما اختاره ورضيه من الثياب قال: أكرم الله تعالى الملك، ومد في عمره أبدًا.

لابد أن الإنسان إذا أكرم وجب عليه الشكر؛ وإن كان قد استوجبه تعبًا ومشقةً فقد كان فيهما رضا الملك.

وأما أنا فما لقيته من عناءٍ وتعبٍ ومشقةٍ، لما أعلم أن لكم فيه الشرف يأهل هذا البيت! فإني لم أزل إلى هذا اليوم تابعًا رضاكم، أرى العسير فيه يسيرًا.

والشاق هينًا، والنصب والأذى سرورًا ولذةً؛ لما أعلم أن لكم فيه رضًا وقربة عندكم.

ولكني أسألك أيها الملك حاجة تسعفني بها، وتعطيني فيها سؤلي؛ فإن حاجتي يسيرةٌ، وفي قضائها فائدةٌ كثيرةٌ.

قال أنوشروان: قل فكل حاجةٍ لك من قبلنا مقضيةٌ، ولم نرد طلبتك؛ فكيف ما سوى ذلك؟ فقل وتحتشم؛ فإن الأمور كلها مبذولة لك.

قال بروزيه: أيها الملك لا تنظر إلى عنائي في رضاك وانكماشي في طاعتك؛ فإنما أنا عبدك يلزمني بذل مهجتي في رضاك؛ ولو لم تجزني لم يكن ذلك عندي عظيمًا ولا واجبًا على الملك؛ ولكن لكرمه وشرف منصبه عمد إلى مجازاتي؛ وخصني وأهل بيتي بعلو المرتبة ورفع الدرجة؛ حتى لو قدر أن يجمع لنا بين شرف الدنيا والآخرة لفعل.

فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

قال أنوشروان: اذكر حاجتك، فعلي ما يسرك.

فقال برزويه: حاجتي أن يأمر الملك، أعلاه الله تعالى، وزيره بزرجمهر بن البختكان؛ ويقسم عليه أن يعمل فكره، ويجمع رأيه، ويجهد طاقته، ويفرغ قلبه في نظم تأليف كلامٍ متقنٍ محكمٍ؛ ويجعله بابًا يذكر فيه أمري ويصف حالي؛ ولا يدع من المبالغة في ذلك أقصى ما يقدر عليه.

ويأمره إذا استتمه أن يجعله أول الأبواب التي تقرأ قبل باب الأسد والثور؛ فإن الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بي وبأهلي غايةَ الشرف وأعلى المراتب؛ وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيًا على الأبد حيثما قرئ هذا الكتاب.

فلما سمع كسرى أنوشروان والعظماء مقالته وما سمت إليه نفسه من محبة إبقاء الذكر -استحسنوا طلبته واختياره، وقال كسرى: حبًّا وكرامةً لك يا برزويه؛ إنك لأهل أن تسعف بحاجتك؛ فما أقل ما قنعت به وأيسره عندنا! وإن كان خطره عندك عظيمًا.

ثم أقبل أنوشروان على وزيره بزرجمهر فقال له: قد عرفت مناصحة برزويه لنا، وتجشمه المخاوف والمهالك فيما يقربه منا، وإتعابه بدنه فيما يسرنا، وما أتى به إلينا من المعروف، وما أفادنا الله على يده من الحكمة والأدب الباقي لنا فخره، وما عرضنا عليه من خزائننا لنجزيه بذلك على ما كان منه، فلم تمل نفسه إلى شيءٍ من ذلك؛ وكان بغيته وطلبته منا أمرًا يسيرًا رآه هو الثواب منا له والكرامة الجليلة عنده؛ فإني أحب أن تتكلم في ذلك وتسعفه بحاجته وطلبته.

واعلم أن ذلك مما يسرني، ولا تدع شيئًا من الاجتهاد، والمبالغة إلا بلغته، وإن نالتك فيه مشقة.

وهو أن تكتب بابًا مضارعًا لتلك الأبواب التي في الكتاب؛ وتذكر فيه فضل برزويه، وكيف كان ابتداء أمره وشأنه، وتنسبه إليه وإلى حسبه وصناعته، وتذكر فيه بعثته إلى بلاد الهند في حاجتنا؛ وما أفدنا على يديه من هنالك؛ وشرفنا به وفضلنا على غيرنا؛ وكيف كان حال برزويه وقدومه من بلاد الهند؛ فقل ما تقدر عليه من التقريظ والإطناب في مدحه، وبالغ في ذلك أفضل المبالغة، واجتهد في ذلك اجتهادًا يسر برزويه وأهل المملكة.

وإن برزويه أهل لذلك مني ومن جميع أهل المملكة ومنك أيضًا: لمحبتك للعلوم.

واجتهد أن يكون غرض هذا الكتاب الذي ينسب إلى برزويه أفضل من أغراض تلك الأبواب عند الخاص والعام، وأشد مشاكلةً لحال هذا العلم؛ فإنك أسعد الناس كلهم بذلك؛ لانفرادك بهذا الكتاب، واجعله أول الأبواب.

فإذا أنت عملته ووضعته في موضعه فأعلمني لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم، فيظهر فضلك واجتهادك في محبتنا؛ فيكون لك بذلك فخر.

فلما سمع بزرجمهر مقالة الملك خر له ساجدًا، وقال: أدام الله لك أيها الملك البقاء، وبلغك أفضل منازل الصالحين في الآخرة والأولى؛ لقد شرفتني بذلك شرفًا باقيًا إلى الأبد.

ثم خرج بزرجمهر من عند الملك، فوصف برزويه من أول يوم دفعه أبواه إلى المعلم، ومضيه إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والأدوية؛ وكيف تعلم خطوطهم ولغتهم؛ إلى أن بعثه أنوشروان إلى الهند في طلب الكتاب.

ولم يدع من فضائل برزويه وحكمته وخلائقه ومذهبه أمرًا إلا نسقه، وأتى به بأجود ما يكون من الشرح.

ثم أعلم الملك بفراغه منه.

فجمع أنوشروان أشراف قومه وأهل مملكته، وأدخلهم إليه؛ وأمر بزرجمهر بقراءة الكتاب، وبرزويه قائم إلى جانب بزرجمهر، وابتدأ بوصف برزويه حتى انتهى إلى آخره.

ففرح الملك بما أتى به بزرجمهر من الحكمة والعلم.

ثم أثنى الملك وجميع من حضره على بزرجمهر، وشكروه ومدحوه؛ وأمر الملك بمال جزيل وكسوةٍ وحليٍ وأوانٍ؛ فلم يقبل من ذلك شيئًا غير كسوةٍ كانت من ثياب الملوك.

ثم شكر له ذلك برزويه، وقبَّل رأسه ويده؛ وأقبل برزويه على الملك، وقال: أدام الله لك الملك والسعادة؛ فقد بلغت بي وبأهلي غاية الشرف بما أمرت به بزرجمهر من صنعه الكتاب في أمري وإبقاء ذكري.

باب عرض الكتاب

ترجمة عبد الله بن المقفع

هذا كتاب (كليلة ودمنة)، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا.

ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير.

فاجتمع لهم بذلك خلالٌ.

أما هم فوجدوا متصرفًا في القول وشعابًا يأخذون منها.

وأما الكتاب فجمع حكمةً ولهوًا: فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشطٌ في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوبٍ مرقومٍ.

وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزًا، وعقدا له عقودًا استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر معيشته؛ فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب.

وينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له؛ وإلى أي غايةٍ جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصحٍ؛ وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالًا: فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما

أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرةً يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب.

وإنه وإن كان غيته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يَعد عليه شيءٌ يرجع إليه نفعه.

ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب؛ من غير إعمال الروية فيما يقرؤه، كان خليقًا ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز، فظهر لو موضع آثار كنز؛ فجعل يحفر ويطلب، فوقع على شيءٍ من عينٍ وورقٍ؛ فقال في نفسه: إن أنا أخذت في نقل هذا المال قليلًا قليلًا طال عليَّ، وقطعني الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه؛ ولكن سأستأجر أقوامًا يحملونه إلى منزلي، وأكون أنا آخرهم، ولا يكون بقي ورائي شيءٌ يشغل فكري بنقله؛ وأكون قد استظهرت لنفسي في إراحة بدني عن الكد بيسير الأجرة أعطيهم إياها.

ثم جاء بالحمالين، فجعل يحمل كل واحدٍ منهم ما يطيق، فينطلق به إلى منزله، فلم يجد فيه من المال شيئًا، لا قليلًا ولا كثيرًا.

وإذا كل واحدٍ من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه.

ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب؛ لأنه لم يفكر في آخر أمره.

وكذلك من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه، ولم يعلم غرضه ظاهرًا وباطنًا، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه؛ كما لو أن رجلًا قدم له جوزٌ صحيحٌ لم ينتفع به إلا أن يكسره؛ وكان أيضًا كالرجل الذي طلب علم الفصيح من كلام الناس؛ فأتى صديقًا له من العلماء، له علمٌ بالفصاحة، فأعلمه حاجته إلى

علم الفصيح؛ فرسم له صديقه في صحيفة صفراء فصيح الكلام، وتصاريفه، ووجوهه؛ فانصرف المتعلم إلى منزله؛ فجعل يكثر قراءتها، ولا يقف على معانيها.

ثم إنه جلس ذات يوم في محفلٍ من أهل العلم والأدب، فأخذ في محاورتهم؛ فجرت له كلمةٌ أخطأ فيها؛ فقال له بعض الجماعة: إنك قد أخطأت؛ والوجه غير ما تكلمت به، فقال: وكيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء؛ وهي في منزلي؟ فكانت مقالته لهم أوجب للحجة عليه، وزاده ذلك قرباً من الجهل وبعدًا من الأدب.

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب، وبلغ نهاية علمه فيه -ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به؛ ويجعله مثالًا لا يحيد عنه.

فإذا لم يفعل ذلك كان مثله كالرجل الذي زعموا أن سارقًا تسور عليه وهو نائم في منزله، فعلم به فقال: والله لأسكتن حتى أنظر ماذا يصنع، ولا أذعره؛ ولا أعلمه أني قد علمت به.

فإذا بلغ مراده قمت إليه، فنغصت ذلك عليه.

ثم إنه أمسك عنه.

وجعل السارق يتردد، وطال تردده في جمعه ما يجده؛ فغلب الرجل النعاس فنام، وفرغ اللص مما أراد، وأمكنه الذهاب.

واستيقظ الرجل، فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به، فأقبل على نفسه يلومها، وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص؛ إذ لم يستعمل في أمره ما يجب.

فالعلم لا يتم إلا بالعمل، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة.

وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به؛ وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالمًا.

ولو أن رجلًا كان عالمًا بطريقٍ مخوفٍ، ثم سلكه على علمٍ به -سُمِّي جاهلًا؛ ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواءً هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها، من ذلك السالك في الطريق المخوف الذي قد جهله.

ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره، كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب، وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشَّرَه على أكل رديئه، وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته.

وأقل الناس عذرًا في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها -من أبصر ذلك، وميَّزه وعرف فضل بعضه على بعض ،كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير، والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها -كانا إذا صارا في قاعها بمنزلةٍ واحدةٍ؛ غير أن البصير أقل عذرًا عند الناس من الضرير؛ إذ كانت له عينان يبصر بهما، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره، ويكون كالعين التي يشرب منها الناس ماءها، وليس لها في ذلك شيءٌ من المنفعة، وكدودة القز التي تحكم صنعته ولا تنتفع به.

فينبغي لمن يطلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه، ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه؛ فإن خلالًا ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتنيها، ويقبسها: منها العلم والمال، ومنها اتخاذ المعروف.

وليس للعالم أن يعيب أمرًا بشيءٍ فيه مثله، ويكون كالأعمى الذي يعيّر الأعمى بعماه.

وينبغي لمن طلب أمرًا أن يكون له فيه غايةٌ ونهايةٌ، ويعمل بها، ويقف عندها؛ ولا يتمادى في الطلب؛ فإنه يقال: من سار إلى غير غاية يوشك أن تنقطع به مطيته؛ وأنه كان حقيقًا ألا يعنّي نفسه في طلب ما لا حد له، وما لم ينله أحد قبله، ولا يتأسف عليه؛ ولا يكون لدنياه مؤثرًا على آخرته؛ فإن من لم يعلق قلبه بالغايات قلت حسرته عند مفارقتها.

وقد يقال في أمرين: إنهما يجملان بكل أحد: أحدهما النسك، والآخر المال الحلال، ولا يليق بالعاقل أن يؤنب نفسه على ما فاته وليس في مقدوره؛ فربما أتاح الله ما يهنأ به ولم يكن في حسبانه.

ومن أمثال هذا أن رجلًا كان به فاقةٌ وجوعٌ وعريٌ، فألجأه ذلك إلى أن سأل أقاربه وأصدقاءه، فلم يكن عند أحد منهم فضل يعود به عليه.

فبينما هو ذات ليلةٍ في منزله إذ أبصر بسارقٍ فيه؛ فقال: والله ما في منزلي شيءٌ أخاف عليه: فليجهد السارق جهده.

فبينما السارق يجول إذ وقعت يده على خابية فيها حنطةٌ، فقال السارق: والله ما أحب أن يكون عنائي الليلة باطلًا.

ولعلي لا أصل إلى موضع آخر، ولكن سأحمل هذه الحنطة.

ثم بسط قميصه ليصب عليه الحنطة.

فقال الرجل: أيذهب هذا بالحنطة وليس ورائي سواها؟ فيجتمع عليَّ مع العري ذهاب ما كنت أقتات به.

وما تجتمع والله هاتان الخلتان على أحدٍ إلا أهلكاه.

ثم صاح بالسارق، وأخذ هراوةً كانت عند رأسه؛ فلم يكن للسارق حيلةٌ إلا الهرب منه، وترك قميصه ونجا بنفسه؛ وغدا الرجل به كاسيًا.

وليس ينبغي أن يركن إلى مثل هذا ويدع ما يجب عليه من الحذر والعمل في مثل هذا لصلاح معاشه؛ ولا ينظر إلى من تواتيه المقادير وتساعده على غير التماس منه؛ لأن أولئك في الناس قليلٌ؛ والجمهور: منهم من أتعب نفسه في الكد والسعي فيما يصلح أمره، وينال به ما أراد.

وينبغي أنْ يكون حرصه على ما طاب كسبه وحسن نفعه؛ ولا يتعرض لما يجلب عليه العناء والشقاء؛ فيكون كالحمامة التي تفرخ الفراخ وتذبح، ثم لا يمنعها ذلك أن تعود فتفرخ موضعها، وتقيم بمكانها فتؤخذ الثانية من فراخها فتذبح.

وقد يقال: إن الله تعالى قد جعل لكل شيءٍ حدًّا يوقف عليه.

ومن تجاوز في أشياء حدها أوشك أن يلحقه التقصير عن بلوغها.

ويقال: من كان سعيه لآخرته ودنياه، فحياته له وعليه.

ويقال في ثلاثة أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيها: منها أمر معيشته، ومنها ما بينه وبين الناس، ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعد.

وقد قيل في أمورٍ من كُنَّ فيها لم يستقم له عملٌ: منها التواني؛ ومنها تضييع الفرص؛ ومنها التصديق لكل مخبرٍ.

فرب مخبرٍ بشيءٍ عقله، ولا يعرف استقامته فيصدقه.

وينبغي للعاقل أن يكون لهواه متهمًا؛ ولا يقبل من كل أحدٍ حديثًا؛ ولا يتمادى في الخطأ إذا ظهر له خطؤه، ولا يقدم على أمرٍ حتى يتبين له الصواب، وتتضح له الحقيقة؛ ولا يكون كالرجل الذي يحيد عن الطريق، فيستمر على الضلال، فلا يزداد في السير إلا جهدًا، وعن القصد إلا بعدًا؛ وكالرجل الذي تقذى عينه فلا يزال يحكها، وربما كان ذلك الحك سببًا لذهابها.

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره؛ فإنه من فعل ذلك كان خليقًا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه.

فإنه يقال: إنه كان رجلٌ تاجرٌ، وكان له شريكٌ، فاستأجرا حانوتًا، وجعلا متاعهما فيه.

وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت؛ فأضمر في نفسه أن يسرق عدلًا من أعدال رفيقه؛ ومكر الحيلة في ذلك، وقال: إن أتيت ليلًا لم آمن من أن أحمل عدلًا من أعدالي أو رزمة من رزمي ولا أعرفها؛ فيذهب عنائي وتعبي باطلًا.

فأخذ رداءه، وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه.

ثم انصرف إلى منزله.

وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله، فوجد رداء شريكه على بعض أعداله، فقال: والله هذا رداء صاحبي؛ ولا أحسبه إلا قد نسيه.

وما الرأي أن أدعه هاهنا؛ ولكن اجعله على رزمه؛ فلعله يسبقني إلى الحانوت فيجده حيث يحب.

ثم أخذ الرداء فألقاه على عدلٍ من أعدال رفيقه ومعه رجلٌ قد واطأه على ما عزم عليه، وضمن له جعلًا على حمله؛ فصار إلى الحانوت؛ فالتمس الإزار في الظلمة فوجده على العدل؛ فاحتمل ذلك العدل؛ وأخرجه هو والرجل، وجعلا يتراوحان على حمله؛ حتى أتى منزله، ورمى نفسه تعبًا.

فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله؛ فندم أشد الندامة.

ثم انطلق نحو الحانوت، فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت ووجد العدل مفقودًا: فاغتم لذلك غمًّا شديدًا؛ وقال: واسوءتاه من رفيق.صالحٍ قد ائتمنني على ماله وخلفني فيه! ماذا يكون حالي عنده؟ ولست أشك في تهمته إياي.

ولكن قد وطنت نفسي على غرامته، ثم أتى صاحبه فوجده مغتمًا، فسأله عن حاله؛ فقال: إني قد افتقدت الأعدال، وفقدت عدلًا من أعدالك، ولا أعلم بسببه؛ وإني لا أشك في تهمتك إياي؛ وإني قد وطنت نفسي على غرامته.

فقال له: يا أخي لا تغتم؛ فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان، والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خيرٍ؛ وصاحبها مغرور أبدًا، وما عاد وبال البغي إلا

على صاحبه: وكيف كان ذلك؟ فأخبره بخبره، وقص عليه قصته، فقال له رفيقه: ما مثلك إلا مثل اللص والتاجر.

فقال له: وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن تاجرًا كان له في منزله خابيتان إحداهما: مملوءة حنطة، والأخرى: مملوءة ذهبًا.

فترقبه بعض اللصوص زمانًا، حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل؛ فتغفله اللص، ودخل المنزل، وكمن في بعض نواحيه.

فلما هم بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة، وظنها التي فيها الذهب؛ ولم يزل في كدٍ وتعبٍ حتى أتى بها منزله فلما فتحها وعلم ما فيها ندم.

قال له الخائن: ما أبعدت المثل، ولا تجاوزت القياس؛ وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك، وعزيز علي أن يكون هذا كهذا.

غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء.

فقبل الرجل معذرته، وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به؛ وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله.

وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه.

بل يشرف على ما يتضمن من الأمثال، حتى ينتهي منه؛ ويقف عند كل مثلٍ وكلمةٍ، ويعمل فيها رؤيته؛ ويكون مثل أصغر الإخوة الثلاثة الذين خلف لهم أبوهم المال الكثير، فتنازعوه بينهم؛ فأما الكبيران فإنهما أسرعا في إتلافه وإنفاقه في غير وجهه؛ وأما الصغير فإنه عندما نظر ما صار إليه أخواه من

إسرافهما وتخليهما من المال أقبل على نفسه يشاورها وقال: يا نفسي إنما المال يطلبه صاحبه، ويجمعه من كل وجهٍ؛ لبقاء حاله، وصلاح معاشه ودنياه، وشرف منزلته في أعين الناس، واستغنائه عما في أيديهم، وصرفه في وجهه: من صلة الرحم، والإنفاق على الولد، والإفضال على الإخوان.

فمن كان له مالٌ ولا ينفقه في حقوقه، كان كالذي يعد فقيرًا وإن كان موسرًا.

وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه، لم يعدم الأمرين جميعًا من دنيا تبقي عليه، وحمدٍ يضاف إليه؛ ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه التي علمت، لم يلبث أن يتلفه ويبقى على حسرةٍ وندامةٍ.

ولكن الرأي أن أمسك هذا المال، فإني أرجو أن ينفعني الله به: ويغني أخويَّ على يدي؛ فإنما هو مال أبي ومال أبيهما.

وإن أولى الإنفاق على صلة الرحم وإن بعدت، فكيف بأخويَّ؟ فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما ماله، وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجرٍ، ويلتمس جواهر معانيه، ولا يظن أن نتيجة الإخبار عن حيلة بهيمتين، أو محاورة سبعٍ لثورٍ: فينصرف بذلك عن الغرض المقصود.

ويكون مثله مثل الصياد الذي كان في بعض الخلجان يصيد فيه السمك في زورق، فرأى ذات يوم في أرض الماء صدفةً تتلألأ حُسنًا، فتوهمها جوهرًا له قيمة، وكان قد ألقى شبكته في البحر، فاشتملت على سمكةٍ كانت قوت يومه، فخلاها وقذف نفسه في الماء ليأخذ الصدفة، فلما أخرجها وجدها فارغة لا شيء فيها مما ظن.

فندم على ترك ما في يده للطمع، وتأسف على ما فاته، فلما كان اليوم الثاني تنحى عن ذلك المكان، وألقى شبكته، فأصاب حوتًا صغيرًا، ورأى أيضًا صدفة سنيةً، فلم يلتفت إليها، وساء ظنه بها، فتركها.

فاجتاز بها بعض الصيادين فأخذها، فوجد فيها درةً تساوي أموالًا.

وكذلك الجهال إذا أغفلوا أمر التفكير في هذا الكتاب، وتركوا الوقوف على أسرار معانيه، وأخذوا بظاهره.

ومن صرف همته إلى النظر في أبواب الهزل، كان كرجلٍ أصاب أرضًا طيبةً حرةً وحبًّا صحيحًا، فزرعها وسقاها، حتى إذا قرب خيرها وأينعت، تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوط؛ فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدةً وأجمل عائدةً.

وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراضٍ: أحدها: ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة؛ ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان، فتستمال به قلوبهم؛ لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان.

والثاني: إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان؛ ليكون أنسًا لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور.

والثالث: أن يكون على هذه الصفة: فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام؛ ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدًا.

والغرض الرابع، وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصةً.

باب بروزيه ترجمة بزرجمهر بن البختكان

قال بروزيه رأس أطباء فارس، وهو الذي تولى انتساخ هذا الكتاب، وترجمه من كتب الهند - وقد مضى ذكر ذلك من قبل - : أبي كان من المقاتلة، وكانت أمي من عظماء بيوت الزمازمة.

وكان منشئي في نعمةٍ كاملةٍ، وكنت أكرم ولد أبوي عليهما؛ وكانا بي أشد احتفاظًا من دون إخوتي، حتى إذا بلغت السبع سنين أسلماني إلى المؤدب؛ فلما حذقت الكتابة شكرت أبوي؛ ونظرت في العلم، فكان أول ما ابتدأت به وحرصت عليه، علم الطب؛ لأني كنت عرفت فضله.

وكلما ازددت منه علمًا ازددت فيه حرصًا، وله اتباعًا.

فلما همت نفسي بمداواة المرضى، وعزمت على ذلك آمرتها، ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التي يطلبها الناس، وفيها يرغبون، ولها يسعون.

فقلت: أي هذه الخلال أبتغي في علمي؟ وأيها أحرى بي فأدرك منه حاجتي؟ المال، أم الذكر، أم اللذات، أم الآخرة؟ وكنت وجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه، لا يبتغي إلا الآخرة.

فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة؛ لئلا أكون كالتاجر الذي باع ياقوتةً ثمينةً بخرزةٍ لا تساوي شيئًا؛ مع أني قد وجدت في كتب الأولين أن الطبيب الذي يبتغي بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه في الدنيا.

وإن مثله مثل الزارع الذي يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب.

ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع يانع الزرع، فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة، فلم أدع مريضًا أرجو له البرء، وآخر لا أرجو له ذلك، إلا أني أطمع أن يخف عنه بعض المرض، إلا بالغت في مداواته ما أمكنني القيام عليه بنفسي؛ ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح، وأعطيته من الدواء ما يعالج به.

ولم أرد ممن فعلت معه ذلك جزاءً ولا مكافأةً؛ ولم أغبط أحدًا من نظرائي الذين هم دوني في العلم، وفوقي في الجاه والمال، وغيرهما مما لا يعود بصلاح، ولا حسن سيرةٍ قولًا ولا عملًا.

لما تاقت نفسي إلى غشيانهم، وتمنت منازلهم أثبت لها الخصومة؛ فقلت لها: يا نفس، أما تعرفين نفعك من ضرك؟ ألا تنتهين عن تمني ما لا يناله أحد إلا قلَّ انتفاعه به، وكثر عناؤه فيه، واشتدت المئونة عليه وعظمت المشقة لديه بعد فراقه؟ يا نفسي، أما تذكرين ما بعد هذه الدار: فينسيك ما تشرهين إليه منها؟ ألا تستحيين من مشاركة الفجار في حب هذه العاجلة الفانية التي من كان في يده شيءٌ منها فليس له، وليس بباقٍ عليه؛ فلا يألفها إلا المغترون الجاهلون؟ يا نفس انظري في أمرك، وانصرفي عن هذا السفه، وأقبلي بقوتك وسعيك على تقديم الخير، وإياكِ والشر، واذكري أن هذا الجسد موجودٌ لآفاتٍ، وأنه مملوءٌ أخلاطًا فاسدةً قذرةً، تعقدها الحياة، والحياة إلى نفادٍ؛ كالصنم المفصلة أعضاؤه إذا ركبت ووضعت، يجمعها مسمارٌ واحدٌ، ويضم بعضها إلى بعضٍ، فإذا أخذ ذلك المسمار تساقطت الأوصال.

يا نفس، لا تغتري بصحبة أحبائك وأصحابك، ولا تحرصي على ذلك كل الحرص؛ فإن صحبتهم -على ما فيها من السرور- كثيرة المئونة، وعاقبة ذلك الفراق.

ومثلها مثل المغرفة التي تستعمل في جدتها؛ لسخونة المرق، فإذا انكسرت صارت وقودًا.

يا نفس، لا يحملنك أهلك وأقاربك على جمع ما تهلكين فيه، إرادة صلتهم؛ فإذا أنت كالدخنة الأرجة التي تحترق، ويذهب آخرون بريحها.

يا نفس، لا يبعد الكثير باليسير؛ كالتاجر الذي كان له ملء بيتٍ من الصندل، فقال: إن بعته وزنًا طال عليَّ، فباعه جزافًا بأبخس الثمن.

وقد وجدت آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة؛ وكلٌّ على كلٍّ رادٌّ، وله عدوٌّ ومغتابٌ، ولقوله مخالفٌ.

فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحدٍ منهم سبيلًا؛ وعرفت أني إن صدقت أحدًا منهم لا علم لي بحاله، كنت في ذلك كالمصدق المخدوع الذي زعموا في شأنه أن سارقًا علا ظهر بيت رجلٍ من الأغنياء، وكان معه جماعةٌ من أصحابه، فاستيقظ صاحب المنزل من حركة أقدامهم، فعرَّف امرأته ذلك؛ فقال لها: رويدًا إني لأحسب اللصوص علوا البيت، فأيقظيني بصوتٍ يسمعه اللصوص، وقولي: ألا تخبرني أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة، وكنوزك العظيمة؟ فإذا نهيتك عن هذا السؤال فألحي عليَّ بالسؤال.

ففعلت المرأة ذلك، وسألته كما أمرها؛ وأنصتت اللصوص إلى سماع قولها.

فقال لها الرجل: أيتها المرأة، قد ساقك القدر إلى رزقٍ واسعٍ كثيرٍ؛ فكلي واسكتي، ولا تسألي عن أمرٍ إن أخبرتك به لم آمن من أن يسمعه أحدٌ، فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين.

فقالت المرأة: أخبرني أيها الرجل، فلعمري ما بقربنا أحدٌ يسمع كلامنا، فقال لها: فإني أخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة.

قال: وكيف كان ذلك؟ وما كنت تصنع؟ قال: ذلك لعلمٍ أصبته في السرقة، وكان الأمر عليَّ يسيرًا، وأنا آمن من أن يتهمني أحدٌ أو يرتاب بي.

فقالت المرأة: أخبرني أيها الرجل، فلعمري ما بقربنا أحدٌ يسمع كلامنا.

فقال لها: فإني أخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة.

قال: وكيف كان ذلك؟ وما كنت تصنع؟ قال: ذلك لعلمٍ أصبته في السرقة، وكان الأمر عليَّ يسيرًا، وأنا آمن من أن يتهمني أحدٌ أو يرتاب فيَّ.

قالت: فاذكر لي ذلك، قال: كنت أذهب في الليلة المقمرة، أنا وأصحابي، حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا؛ فأنتهي إلى الكوة التي يدخل منها الضوء، فأرقي بهذه الرقية، وهي: شولم، شولم (سبع مرات)، وأعتنق الضوء؛ فلا يحس بوقوعي أحدٌ، فلا أدع مالًا ولا متاعًا إلا أخذته.

ثم أرقي بتلك الرقية سبع مراتٍ.

وأعتنق الضوء فيجذبني؛ فأصعد إلى أصحابي، فنمضي سالمين آمنين.

فلما سمع اللصوص ذلك قالوا: قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال؛ ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا؛ فقام قائدهم إلى

مدخل الضوء؛ وقال: شولم، شولم (سبع مراتٍ)؛ ثم اعتنق الضوء؛ لينزل إلى أرض المنزل، فوقع على أم رأسه منكسًا، فوثب إليه الرجل بهراوته، وقال له: من أنت؟ قال: أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يكون أبدًا؛ وهذه ثمرة رقيتك.

فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون، ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في مهلكةٍ عدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها؛ فلم أجد عند أحدٍ ممن كلمته جوابًا فيما سألته عنه فيها، ولم أر فيما كلموني به شيئًا يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه.

فقلت: لما لم أجد ثقةً آخذ منه، الرأي أن ألزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدتهم عليه.

فلما ذهبت التمس العذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقةً؛ بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها، وللنظر فيها؛ فهجس في قلبي وخطر على بالي قرب الأجل وسرعة انقطاع الدنيا واعتباط أهلها وتخرم الدهر حياتهم، ففكرت في ذلك.

فلما خفت من التردد والتحول، رأيت ألا أتعرض لما أتخوف منه المكروه؛ وأن أقتصر على عملٍ تشهد النفس أنه يوافق كل الأديان.

فكففت يدي عن القتل والضرب، وطرحت نفسي عن المكروه، والغضب، والسرقة، والخيانة، والكذب، والبهتان، والغيبة، وأضمرت في نفسي ألا أبغي على أحدٍ، ولا أكذِّب بالبعث ولا القيامة، ولا الثواب ولا العقاب؛ وزايلت الأشرار بقلبي، وحاولت الجلوس مع الأخيار بجهدي،

ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرينٌ، ووجدت مكسبه إذا وفق الله وأعان يسيرًا؛ ووجدته لا ينقص على الإنفاق منه؛ بل يزداد جدةً وحسنًا؛ ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغصبه، ولا من الماء أن يغرقه، ولا من النار أن تحرقه، ولا من اللصوص أن تسرقه، ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزقه، ووجدت الرجل الساهي اللاهي المؤثر اليسير يناله في يومه، ويعدمه في غده على الكثير الباقي نعيمه، يصيبه ما أصاب التاجر الذي زعموا أنه كان له جوهرٌ نفيسٌ، فاستأجر لثقبه رجلًا، اليوم بمائة دينار؛ وانطلق به إلى المنزل ليعمل، وإذا في ناحية البين صنجٌ موضوعٌ.

فقال التاجر للصانع: هل تحسن أن تلعب بالصنج؟ قال: نعم.

وكان بلعبه ماهرًا.

فقال التاجر: دونك الصنج فأسمعنا ضربك به.

فأخذ الرجل الصنج، ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح، والصوت الرفيع، والتاجر يشير بيده ورأسه طربًا، حتى أمسى.

فلما حان وقت الغروب قال الرجل للتاجر: مر لي بالأجرة.

فقال له التاجر: وهل عملت شيئًا تستحق به الأجرة؟ فقال له: عملت ما أمرتني به، وأنا أجيرك، وما استعملتني عملت؛ ولم يزل به حتى استوفى منه مائة دينار.

وبقي جوهره غير مثقوب.

فلم أزدد في الدنيا وشهواتها نظرًا، إلا ازددت فيها زهادةً ومنها هربًا.

ووجدت النسك هو الذي يمهد للمعاد كما يمهد الوالد لولده؛ ووجدته هو الباب المفتوح إلى النعيم المقيم؛ووجدت الناسك قد تدبر فعلته بالسكينة فشكر؛ وتواضع وقنع فاستغنى، ورضي ولم يهتم، وخلع الدنيا فنجا من الشرور، ورفض الشهوات فصار طاهرًا، وطرح الحسد فوجبت له المحبة، وسخت نفسه بكل شيء؛ واستعمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة، ولم يخف الناس ولم يدب إليهم فسلم منهم.

فلم أزدد في أمر النسك نظرًا، إلا ازددت فيه رغبةً، حتى هممت أن أكون من أهله.

ثم تخوفت ألا أصبر على عيش الناسك، ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت في النسك، أن أضعف عن ذلك؛ ورفضت أعمالًا كنت أرجو عائدتها؛ وقد كنت أعملها فأنتفع بها في الدنيا، فيكون مثلي في ذلك مثل الكلب الذي مر بنهرٍ وفي فيه ضلعٌ، فرأى ظلها في الماء، فهوى ليأخذها، فأتلف ما كان معه؛ ولم يجد في الماء شيئًا.

فهبت النسك مهابةً شديدةً، وخفت من الضجر وقلة الصبر، وأردت الثبوت على حالتي التي كنت عليها.

ثم بدا لي أن أسبر ما أخاف ألا أصبر عليه من الأذى والضيق والخشونة في النسك؛ وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء؛ وكان عندي أنه ليس شيءٌ من شهوات الدنيا ولذاتها إلا وهو متحول إلى الأذى ومولِّدٌ للحزن.

فالدنيا كالماء الملح الذي يصيبه الكلب فيجد فيه ريح اللحم؛ فلا يزال يطلب ذلك حتى يدمي فاه.

وكالحدأة التي تظفر بقطعة من اللحم، فيجتمع عليها الطير، فلا تزال تدور وتدأب حتى تعيا وتتعب؛ فإذا تعبت ألقت ما معها.

وكالكوز من العسل الذي في أسفله السم الذي يذاق منه حلاوةٌ عاجلةٌ وآخره موتٌ زعافٌ، وكأحلام النائم التي يفرح بها الإنسان في نومه، فإذا استيقظ ذهب الفرح.

فلما فكرت في هذه الأمور، رجعت إلى طلب النسك، وهزني الاشتياق إليه؛ ثم خاصمت نفسي؛ إذ هي في شرورها سارحةٌ، وقد لا تثبت على أمرٍ تعزم عليه: كقاضٍ سمع من خصمٍ واحدٍ فحكم له، فلما حضر الخصم الثاني عاد إلى الأول وقضى عليه.

ثم نظرت في الذي أكابده من احتمال النسك وضيقه؛ فقلت: ما أصغر هذه المشقة في جانب روح الأبد وراحته! ثم نظرت فيما تشره إليه النفس من لذة الدنيا، فقلت: ما أمر هذا وأوجعه، وهو يدفع إلى عذاب الأبد وأهواله! وكيف لا يستحلي الرجل مرارةً قليلةً تعقبها حلاوةٌ طويلةٌ؟ وكيف لا تمر عليه حلاوةٌ قليلةٌ تعقبها مرارةٌ دائمةٌ؟ وقلت: لو أن رجلًا عرض عليه أن يعيش مائة سنةٍ، لا يأتي عليه يومٌ واحدٌ إلا بُضع منه بضعةٌ؛ ثم أعيد عليه من الغد؛ غير أنه يشرط له، أنه إذا استوفى السنين المائة، نجا من كل ألم وأذى، وصار إلى الأمن والسرور، كان حقيقًا ألا يرى تلك السنين شيئًا.

وكيف يأبى الصبر على أيام قلائل يعيشها في النسك، وأذى تلك الأيام قليلٌ يعقب خيرًا كثيرًا؟ فلنعلم أن الدنيا كلها بلاءٌ وعذابٌ.

أوَ ليس الإنسان إنما يتقلب في عذاب الدنيا من حين يكون جنينًا إلى أن يستوفي أيام حياته؟ فإذا كان طفلًا ذاق من العذاب ألوانًا: إن جاع فليس به استطعامٌ، أو عطش فليس به استسقاءٌ، أو وجع فليس به استغاثةٌ؛ مع ما يلقى من الوضع والحمل، واللف والدهن والمسح؛ إن أنيم على ظهره لم يستطع تقلبًا؛ ثم يلقى أصناف العذاب مادام رضيعًا، فإذا أفلت من هذا الرضاع، أخذ في عذاب الأدب، فأذيق منه ألوانًا: من عنف المعلم، وضجر الدرس، وسآمة الكتابة؛ ثم له من الدواء والحمية، والأسقام والأوجاع أوفى حظٍ.

فإذا أدرك كانت همته في جمع المال، وتربية الولد، ومخاطرة الطلب، والسعي والكد والتعب.

وهو مع ذلك يتقلب مع أعدائه الباطنية اللازمة له: وهي الصفراء والسوداء والريح والبلغم والدم والسم المميت والحية اللاذعة؛ مع الخوف من السباع والهوام؛ مع صرف الحر والبرد والمطر والرياح؛ ثم أنواع عذاب الهرم لمن يبلغه.

فلو لم يخف من هذه الأمور شيئًا، وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكر فيها، لوجب عليه أن يعتبر بالساعة التي يحضره فيها الموت، فيفارق الدنيا؛ ويتذكر ما هو نازل به في تلك الساعة: من فراق الأحبة والأهل والأقارب وكل مضنونٍ به من الدنيا، والإشراف على الهول العظيم بعد الموت.

فلو لم يفعل ذلك، لكان حقيقًا أن يعد عاجزًا مفرطًا محبًّا للدناءة مستحقًّا للوم؛ فمن ذا الذي يعلم ولا يحتال لغد جهده في الحيلة، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها؟ و لاسيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي

وهو كدرٌ؛ فإنه وإن كان الملك حازمًا عظيم المقدرة، رفيع الهمة بليغ الفحص، عدلًا مرجوًّا صدوقًا شكورًا، رحب الذراع، مواظبًا مستمرًّا عالمًا بالناس والأمور، محبًّا للعلم والخير والأخيار، شديدًا على الظَّلَمة، غير جبانٍ و خفيف القياد، رفيقًا بالتوسع على الرعية فيما يحبون، والدفع لما يكرهون؛ فإنا قد نرى الزمان مدبرًا بكل مكانٍ، فكأن أمور الصدق قد نزعت من الناس، فأصبح ما كان عزيزًا فقده مفقودًا، وموجودًا ما كان ضائرًا وجوده.

وكأن الخير أصبح ذابلًا، والشر أصبح ناضرًا.

وكأن الفهم أصبح قد زالت سبله.

وكأن الحق ولى كسيرًا وأقبل الباطل تابعه.

وكأن اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلًا؛ وأصبح المظلوم بالحيف مقرًّا والظالم لنفسه مستطيلًا.

وكأن الحرص أصبح فاغرًا فاه من كل وجهةٍ يتلقف ما قرب منه وما بعد.

وكأن الرضا أصبح مجهولًا.

وكأن الأشرار يقصدون السماء صعودًا.

وكأن الأخيار يريدون بطن الأرض؛ وأصبحت الدناءة مكرمةٌ ممكنةٌ؛ وأصبح السلطان منتقلًا عن أهل الفضل إلى أهل النقص.

وكأن الدنيا جذلة مسرورةٌ تقول: قد غيبت الخيرات وأظهرت السيئات.

فلما فكرت في الدنيا وأمورها؛ وأن الإنسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله؛ ثم هو لا يتقلب إلا في الشرور والهموم، عرفت أنه ليس إنسانٌ ذو عقلٍ يعلم ذلك، ثم لا يحتال لنفسه في النجاة؛ فعجبت من ذلك كل العجب.

ثم نظرت فإذا الإنسان لا يمنعه عن الاحتيال لنفسه إلا لذةٌ صغيرةٌ حقيرةٌ غير كبيرةٍ من الشم والذوق والنظر والسمع واللمس: فعله يصيب منها الطفيف أو يقتني منها اليسير؛ فإذا ذلك يشغله ويذهب به عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها.

فالتمست للإنسان مثلًا، فإذا مثله مثل رجلٍ نجا من خوف فيلٍ هائجٍ إلى بئرٍ، فتدلى فيها، وتعلق بغصنين كانا على سمائها، فوقعت رجلاه على شيءٍ في طي البئر -فإذا حياتٌ أربع قد أخرجن رءوسهن من أحجارهن، ثم نظر فإذا في قاع البئر تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه؛ فرفع بصره إلى الغصنين فإذا في أصلهما جرذان أسود وأبيض، وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران، فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذا أبصر قريبًا منه كوارةً فيها عسل نحلٍ؛ فذاق العسل، فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيءٍ من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه؛ ولم يذكر أن رجليه على حياتٍ أربعٍ لا يدري متى يقع عليهن؛ ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين؛ ومتى انقطعا وقع على التنين.

فلم يزل لاهيًا غافلًا مشغولًا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك.

فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفاتٍ وشرورًا، ومخافاتٍ وعاهاتٍ؛ وشبهت بالحيات الأربع الأخلاط الأربعة التي في البدن: فإنها متى هاجت، أو أحدها كانت كحمة الأفاعي والسم المميت؛ وشبهت بالجرذين الأسود والأبيض الليل والنهار اللذين هما دائبان في إفناء الأجل؛ وشبهت بالتنين المصير الذي لا بد منه؛ وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الإنسان فيطعم ويسمع ويشم ويلمس، ويتشاغل عن نفسه، ويلهو عن شأنه، ويصد عن سبيل قصده.

فحينئذٍ صار أمري إلى الرضا بحالي وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملي؛ لعلي أصادف باقي أيامي زمانًا أصيب فيه دليلًا على هداي، وسلطانًا على نفسي، وقوامًا لأمري، فأقمت على هذه الحال وانتسخت كتبًا كثيرةً؛ وانصرفت من بلاد الهند، وقد نسخت هذا الكتاب.

باب الأسد والثور وهو أول الكتاب

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، وهو رأس البراهمة: اضرب لنا مثلًا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء.

قال بيدبا: إذا ابتلي المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال، لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا.

ومن أمثال ذلك: أنه كان بأرضِ دستاوند رجلٌ شيخٌ، وكان له ثلاثة بنين.

فلما بلغوا أشدهم أسرفوا في مال أبيهم؛ ولم يكونوا احترفوا حرفةً يكسبون لأنفسهم بها خيرًا.

فلامهم أبوهم؛ ووعظهم على سوء فعلهم؛ وكان من قوله لهم: يا بني إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء: أما الثلاثة التي يطلب، فالسعة في الرزق، والمنزلة في الناس، والزاد للآخرة؛ وأما الأربعة التي يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه، ثم استثماره، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان، فيعود عليه نفعه في الآخرة.

فمن ضيع شيئًا من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته؛ لأنه إن لم يكتسب، لم يكن مالٌ يعيش به؛ وإن هو كان ذا مالٍ واكتسابٍ، ثم لم يحسن القيام عليه، أوشك المال أن يفنى ويبقى معدمًا؛ وإن هو وضعه ولم يستثمره، لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الذهاب: كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا غبار الميل، ثم هو مع ذلك سريعٌ فناؤه.

وإن أنفقه في غير وجهه، ووضعه في غير موضعه، وأخطأ في مواضع استحقاقه، صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له؛ ثم لا يمنع ذلك ماله من التلف بالحوادث والعلل التي تجري عليه؛ كمحبس الماء الذي لا تزال المياه تنصب فيه، فإن لم يكن له مخرجٌ ومفيضٌ ومتنفسٌ يخرج الماء منه بقدر ما ينبغي، خرب وسال ونزَّ من نواحٍ كثيرةٍ، وربما انبثق البثق العظيم فذهب الماء ضياعًا، ثم إن بني الشيخ اتعظوا بقول أبيهم، وأخذوا به وعلموا أن فيه الخير وعولوا عليه؛ فانطلق أكبرهم نحو أرضٍ يقال لها: ميون؛ فأتى في طريقه على مكانٍ فيه وحلٌ كثيرٌ؛ وكان معه عجلةٌ يجرها ثوران يقال لأحدهما: شتربة.

وللآخر: بندبة، فوحل شتربة في ذلك المكان، فعالجه الرجل وأصحابه حتى بلغ منهم الجهد، فلم يقدروا على إخراجه؛ فذهب الرجل وخلف عنده رجلًا يشارفه: لعل الوحل ينشف فيتبعه بالثور.

فلما بات الرجل بذلك المكان، تبرم به واستوحش؛ فترك الثور والتحق بصاحبه، فأخبره أن الثور قد مات؛ وقال له: إن الإنسان إذا انقضت مدته وحانت منيته فهو وإن اجتهد في التوقي من الأمور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئًا؛ وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وبالًا عليه.

كالذي قيل: إن رجلًا سلك مفازةً فيها خوفٌ من السباع؛ وكان الرجل خبيرًا بوعث تلك الأرض وخوفها؛ فلما سار غير بعيد اعترض له ذئبٌ من أحد الذئاب وأضراها؛ فلما رأى الرجل أن الذئب قاصد نحوه خاف منه، ونظر يمينًا وشمالًا ليجد موضعًا يتحرز فيه من الذئب فلم ير إلا قريةً خلف واد؛ ورأى الذئب قد أدركه، فألقى نفسه في الماء، وهو لا يحسن السباحة، وكاد

يغرق، لولا أن بصر به قومٌ من أهل القرية؛ فتواقعوا لإخراجه فأخرجوه، وقد أشرف على الهلاك؛ فلما حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة الذئب رأى على عدوة الوادي بيتًا مفردًا؛ فقال: أدخل هذا البيت فأستريح فيه.

فلما دخله وجد جماعةً من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجلٍ من التجار.

وهم يقتسمون ماله؛ ويريدون قتله؛ فلما رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية؛ فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها؛ ليستريح مما حل به من الهول والإعياء، إذ سقط الحائط عليه فمات.

قال التاجر: صدقت؛ قد بلغني هذا الحديث.

وأما الثور فإنه خلص من مكانه وانبعث.

فلم يزل في مرجٍ مخصبٍ كثير الماء والكلأ؛ فلما سمن وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالخوار.

وكان قريبًا منه أجمةٌ فيها أسدٌ عظيمٌ؛ وهو ملك تلك الناحية، ومعه سباعٌ كثيرةٌ وذئابٌ وبنات آوى وثعالب وفهودٌ ونمورٌ؛ وكان هذا الأسد منفردًا برأيه دون أخذٍ برأي أحدٍ من أصحابه.

فلما سمع خوار الثور، ولم يكن رأى ثورًا قط، ولا سمع خواره؛ لأنه كان مقيمًا مكانه لا يبرح ولا ينشط؛ بل يؤتى برزقه كل يومٍ على يد جنده.

وكان فيمن معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما: كليلة وللآخر دمنة؛ وكانا ذوي دهاء وعلمٍ وأدبٍ.

فقال دمنة لأخيه كليلة: يا أخي ما شأن الأسد مقيمًا مكانه لا يبرح ولا ينشط؟ قال له كليلة: ما شأنك أنت والمسألة عن هذا؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحب وتاركين لما يكره؛ ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم.

فأمسك عن هذا، واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أن قردًا رأى نجارًا يشق خشبة بين وتدين، وهو راكب عليها؛ فأعجبه ذلك.

ثم إن النجار ذهب لبعض شأنه.

فقام القرد؛ وتكلف ما ليس من شغله، فركب الخشبة، وجعل ظهره قبل الوتد، ووجهه قبل الخشبة؛ فتدلى ذنبه في الشق، ونزع الوتد فلزم الشق عليه فخر مغشيًا عليه.

فكان ما لقي من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة.

قال دمنة: قد سمعت ما ذكرت، ولكن اعلم أن كل من يدنو من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه، وإنما يدنو منهم؛ ليسر الصديق ويكبت العدو.

وإن من الناس من لا مروءة له؛ وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون؛ كالكلب الذي يصيب عظمًا يابسًا فيفرح به.

وأما أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل، ولا يرضون به، دون أن تسموا به نفوسهم إلى ما هم أهلٌ له، وهو أيضًا لهم أهلٌ؛ كالأسد الذي يفترس

الأرنب، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير، ألا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه، حتى ترمى له الكسرة، وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتى يمسح ويتملق له.

فمن عاش ذا مالٍ، وكان ذا فضلٍ وإفضالٍ على أهله وإخوانه فهو -وإن قل عمره- طويل العمر.

ومن كان في عيشه ضيقٌ وقلةٌ وإمساكٌ على نفسه وذويه -فالمقبور أحيا منه.

ومن عمل لبطنه وقنع وترك ما سوى ذلك عُدَّ من البهائم.

قال كليلة: قد فهمت ما قلت؛ فراجع عقلك، واعلم أن لكل إنسانٍ منزلةً وقدرًا.

فإن كان في منزلته التي هو فيها متماسكًا، كان حقيقًا أن يقنع.

وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التي نحن عليها.

قال دمنة: إن المنازل متنازعةٌ مشتركةٌ على قدر المروءة؛ فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة؛ ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة.

إن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديدٌ، والانحطاط منه مهينٌ؛ كالحجر الثقيل: رفعه من الأرض إلى العاتق عسرٌ، ووضعه إلى الأرض هينٌ.

فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا.

ثم كيف نقنع بها ونحن نستطيع التحول عنها؟ قال كليلة: فما الذي اجتمع عليه رأيك؟ قال دمنة: أريد أن أتعرض لأسد عند هذه الفرصة: فإن الأسد ضعيف الرأي.

ولعلي على هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده منزلةً ومكانةً.

قال كليلة: وما يدريك أن الأسد قد التبس عليه أمره؟ قال دمنة: بالحس والرأي أعلم ذلك منه؛ فإن الرجل ذا الرأي يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دله وشكله.

قال كليلة: فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان، ولا لك علمٌ بخدمة السلاطين؟ قال دمنة: الرجل الشديد القوي لا يعجزه الحمل الثقيل، وإن لم تكن عادته الحمل؛ والرجل الضعيف لا يستقل به وإن كان ذلك من صناعته.

قال كليلة: فإن السلطان لا يتوخى بكرامته فضلاء من بحضرته؛ ولكنه يؤثر الأدنى ومن قرب منه.

ويقال: إن مثل السلطان في ذلك مثل شجر الكرم الذي لا يعلق إلا بأقرب الشجر.

وكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست تدنو منه؟ قال دمنة: قد فهمت كلامك جميعه وما ذكرت، وأنت صادقٌ.

لكن اعلم أن الذي هو قريبٌ من السلطان ولا ذلك في موضعه ولا تلك منزلته، ليس كمن دنا منه بعد البعد وله حقٌّ وحرمةٌ؛ وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدي.

وقد قيل: لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأنفة، ويحمل الأذى، ويكظم الغيظ، ويرفق بالناس، ويكتم السر؛ فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده.

قال كليلة: هبك وصلت إلى الأسد، فما توفيقك عنده الذي ترجو أن تنال به المنزلة والحظوة لديه؟ قال دمنة: لو دنوت منه وعرفت أخلاقه، لرفقت في متابعته وقلة الخلاف له.

وإذا أراد أمرًا هو في نفسه صواب، زينته له وصبرته عليه، وعرفته بما فيه من النفع والخير؛ وشجعته عليه وعلى الوصول إليه، حتى يزداد به سرورًا.

وإذا أراد أمرًا بما فيه الضر والشين، وأوقفته على ما في تركه من النفع والزين، بحسب ما أجد إليه السبيل.

وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانةً ويرى مني ما لا يراه من غيري: فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقًّا أو يحق باطلًا لفعل: كالمصور الماهر الذي يصور في الحيطان صورًا كأنها خارجةٌ وليست بخارجةٍ، وأخرى كأنها داخلةٌ وليست بداخلةٍ.

قال كليلة: أما إن قلت هذا أو قلت هذا فإني أخاف عليك من السلطان؛ فإن صحبته خطرةٌ.

وقد قالت العلماء: إن أمورًا ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا قليلٌ، وهي: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة.

وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذي فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة.

وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضارٍ مخوفٍ.

فالارتقاء إليه شديدٌ، والمقام فيه أشد.

قال دمنة: صدقت فيما ذكرت؛ غير أنه من لم يركب الأهوال، لم ينل الرغائب؛ ومن ترك الأمر الذي لعله يبلغ فيه حاجته هيبةً ومخافةً لما لعله أن يتوقاه، فليس ببالغٍ جسيمًا.

وقد قيل: إن خصالًا ثلاثًا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همةٍ وعظيم خطرٍ: منها عمل السلطان وتجارة البحر ومناجزة العدو.

وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد: إنه لا يرى إلا في مكانين، ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرمًا، وإما مع النساك متعبدًا، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانتين: إما أن تراه وحشيًّا وإما مركبًا للملوك.

قال كليلة: خار الله لك فيما عزمت عليه.

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلم عليه.

فقال الأسد لبعض جلسائه: من هذا؟ فقال: فلان بن فلان.

قال: قد كنت أعرف أباه.

ثم سأله: أين تكون؟ قال: لم أزل ملازمًا باب الملك، رجاء أن يحضر أمرٌ، فأعين الملك به بنفسي ورأيي؛ فإن أبوابَ الملك تكثر فيها الأمور التي ربما تحتاج فيها إلى الذي لا يؤبه له؛ وليس أحدٌ يصغر أمره إلا وقد يكون عنده بعض الغناء والمنافع على قدره؛ حتى العود الملقى في الأرض ربما نفع، فيأخذه الرجل فيكون عدته عند الحاجة إليه.

فلما سمع الأسد قول دمنة أعجبه، وظن أن عنده نصيحةً ورأيًا.

فأقبل على من حضر، فقال: إن الرجل ذا العلم والمروءة يكون خامل الذكر خافض المنزلة، فتأبى منزلته إلا أن تشب وترتفع؛ كالشعلة من النار يضربها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعًا.

فلما عرف دمنة أن الأسد قد عجب منه -قال: إن رعية الملك تحضر باب الملك، رجاء أن يعرف ما عندها من علمٍ وافرٍ.

وقد يقال: إن الفضل في أمرين: فضل المقاتل على المقاتل، والعالم على العالم.

وإن كثرة الأعوان إذا لم يكونوا مختبرين ربما تكون مضرةً على العمل؛ فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان، ولكن بصالحي الأعوان.

ومثل ذلك مثل الرجل الذي يحمل الحجر الثقيل، فيقل به نفسه، ولا يجد له ثمنًا.

والرجل الذي يحتاج إلى الجذوع لا يجزئه القصب وإن كثر.

فأنت الآن أيها الملك حقيقٌ ألا تحقر مروءة أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة؛ فإن الصغير ربما عظم، كالعصب يؤخذ من الميتة فإذا عمل منه القوس أكرم، فتقبض عليه الملوك، وتحتاج إليه في البأس واللهو.

وأحب دمنة أن يُري القوم أن ما ناله من كرامة الملك غنم هو لرأيه، ومروءته، وعقله؛ لأنهم عرفوا قبل ذلك أن ذلك لمعرفته أباه، فقال: إن السلطان لا يقرب الرجال لقرب آبائهم، ولا يبعدهم لبعدهم، ولكن ينبغي أن ينظر إلى كل رجلٍ بما عنده؛ لأنه لا شيء أقرب إلى الرجل من جسده، ومن جسده ما يدوى حتى يؤذيه، ولا يدفع ذلك عنه إلا بالدواء الذي يأتيه من بعد.

فلما فرغ دمنة من مقالته هذه أعجب الملك به إعجابًا شديدًا، وأحسن الرد عليه، وزاد في كرامته.

ثم قال لجلسائه: ينبغي للسلطان ألا يلج في تضييع حق ذوي الحقوق.

والناس في ذلك رجلان: رجلٌ طبعه الشراسة، فهو كالحية إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديرًا أن يغره ذلك منها، فيعود إلى وطئها ثانية فتلدغه؛ ورجلٌ أصل طباعه السهولة، فهو كالصندل البارد الذي إذا أفرط في حكه صار حارًّا مؤذيًا.

ثم إن دمنة استأنس بالأسد، وخلا به.

فقال يومًا: أرى الملك قد أقام في مكانٍ واحدٍ لا يبرح منه، فما سبب ذلك؟ فبينما هما في هذا الحديث إذ خار شتربة خوارًا شديدًا، فهيج الأسد وكره أن يخبر دمنة بما ناله؛ وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبةً وهيبةً.

فسأله: هل راب الملك سماع هذا الصوت؟ قال: لم يربني شيءٌ سوى ذلك.

قال دمنة: ليس الملك بحقيقٍ أن يدع مكانه لأجل صوتٍ.

فقد قالت العلماء: إن ليس من كل الأصوات تجب الهيبة.

قال الأسد: وما مثل ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن ثعلبًا أتى أجمةً فيها طبل معلق على شجرةٍ، وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرية حركتها، فضربت الطبل فسمع له صوتٌ عظيمٌ؛ فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظم صوته؛ فلما أتاه وجده ضخمًا، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم.

فعالجه حتى شقه.

فلما رآه أجوف لا شيء فيه، قال: لا أدري لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتًا، وأعظمها جثةً.

وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لتعلم أن هذا الصوت الذي راعنا، لو وصلنا إليه -لوجدناه أيسر مما في أنفسنا.

فإن شاء الملك بعثني وأقام بمكانه حتى آتيه ببيان هذا الصوت.

فوافق الأسد قوله، فأذن له بالذهاب نحو الصوت.

فانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه شتربة.

فلما فصل دمنة من عند الأسد، فكر الأسد في أمره، وندم على إرسال دمنة حيث أرسله، وقال في نفسه: وأصبت في ائتماني دمنة، وقد كان ببابي مطروحًا؛ فإن الرجل إذا كان يحضر باب الملك، وقد أبطلت حقوقه من غير جرمٍ كان منه، أو كان مبغيًا عليه عند سلطانه؛ أو كان عنده معروفًا بالشره والحرص، أو كان قد أصابه ضرٌّ وضيقٌ فلم ينعشه، أو كان قد اجترم جرمًا فهو يخاف العقوبة منه، أو كان يرجو شيئًا يضر الملك وله منه نفع؛ أو يخاف في شيءٍ مما ينفعه ضرًّا، أو كان لعدو الملك مسالمًا، ولمسالمه محاربًا، فليس السلطان بحقيقٍ أن يعجل بالاسترسال إليه، والثقة به، والائتمان له؛ فإن دمنة داهيةٌ أريبٌ.

وقد كان ببابي مطروحًا مجفوًّا.

ولعله قد احتمل عليَّ بذلك ضغنًا، ولعل ذلك يحمله على خيانتي، وإعانة عدوي، ونقيصتي عنده؛ ولعله صادف صاحب الصوت أقوى سلطانًا مني، فيرغب به عني، ويميل معه عليَّ.

ثم قام من مكانه فمشى غير بعيدٍ، فبصر بدمنة مقبلًا نحوه، فطابت نفسه بذلك، ورجع إلى مكانه، ودخل دمنة على الأسد، فقال له: ماذا صنعت؟ وماذا رأيت؟ قال: رأيت ثورًا هو صاحب الخوار والصوت الذي سمعته.

قال: فما قوته؟ قال: لا شوكة له.

وقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء، ولا يصغرن عندك أمره؛ فإن الريح الشديدة لا تعبأ بضعيف الحشيش، لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر.

قال دمنة: لا تهابن أيها الملك منه شيئًا؛ ولا يكبرن عليك أمره، فأنا آتيك به؛ ليكون لك عبدًا سامعًا مطيعًا.

قال الأسد: دونك وما بدا لك.

فانطلق دمنة إلى الثور، فقال له غير هائب ولا مكترث: إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك.

وأمرني، إن أنت عجلت إليه طائعًا، أو أؤمنك على ما سلف من ذنبك في التأخر عنه وتركك لقاءه؛ وإن أنت تأخرت عنه وأحجمت، أن أعجل الجرعة إليه فأخبره.

قال له شتربة: ومن هو هذا الأسد الذي أرسلك إليَّ؟ وأين هو؟ وما حاله؟ قال دمنة: هو ملك السباع، وهو بمكان كذا، ومعه جندٌ كثيرٌ من جنسه، فرعب شتربة من ذكر الأسد والسباع.

وقال: إن أنت جعلت لي الأمان على نفسي أقبلت معك إليه.

فأعطاه دمنة من الأمان ما وثق به.

ثم أقبل والثور معه، حتى دخلا على الأسد، فأحسن الأسد إلى الثور وقرَّبه؛ وقال له: متى قدمت هذه البلاد؟ وما أقدمكها؟ فقص شتربة عليه قصته.

فقال له الأسد: اصحبني والزمني؛ فإني مكرمك.

فدعا الثور وأثنى عليه.

ثم إن الأسد قرب شترية، وأكرمه وأنس به وائتمنه على أسراره وشاوره في أمره، ولم تزده الأيام إلا عجبًا به ورغبةً فيه وتقريبًا منه؛ حتى صار أخص أصحابه عنده منزلةً.

فلما رأى دمنة أن الثور قد اختص بالأسد دونه ودون أصحابه، وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه، حسده حسدًا عظيمًا، وبلغ منه غيظه كل مبلغ، فشكا ذلك إلى أخيه كليلة، وقال له: ألا تعجب يا أخي من عجز رأيي، وصنعي بنفسي؟ ونظري فيما ينفع الأسد، وأغفلت نفع نفسي حتى جلبت إلى الأسد ثورًا غلبني على منزلتي.

قال كليلة: أخبرني عن رأيك، وما تريد أن تعزم عليه في ذلك.

قال دمنة: أما أنا فلست اليوم أرجو أن تزداد منزلتي عند الأسد فوق ما كانت عليه؛ ولكن ألتمس أن أعود إلى ما كنت عليه؛ فإن أمورًا ثلاثةً العاقل جدير بالنظر فيها، والاحتيال لها بجهده: منها النظر فيما مضى من الضر والنفع، فيحترس من الضر الذي أصابه فيما سلف؛ لئلا يعود إلى ذلك الضر، ويلتمس النفع الذي مضى ويحتال لمعاودته؛ ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضاء، والاستيثاق بما ينفع والهرب مما يضر؛ ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع، وما يخاف من قبل الضر، فيستتم ما يرجو، ويتوقى ما يخاف بجهده.

وإني لما نظرت في الأمر الذي به أرجو أن تعود منزلتي، وما غلبت عليه مما كنت فيه، لم أجد حيلةً ولا وجهًا إلا الاحتيال لأكل العشب هذا، حتى أفرق بينه وبين الحياة؛ فإنه إن فارق الأسد عادت لي منزلتي.

ولعل ذلك يكون خيرًا للأسد؛ فإن إفراطه في تقريب الثور خليقٌ أن يشينه ويضره في أمره.

قال كليلة: ما أرى على الأسد في رأيه في الثور ومكانه منه ومنزلته عنده شينًا ولا شرًّا.

قال دمنة: إنما يؤتى السلطان ويفسد أمره من قبل ستة أشياء: الحرمان، والفتنة، والهوى، والفظاظة، والزمان، والخرق.

فأما الحرمان فإن يحرم صالح الأعوان، والنصحاء، والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، وترك التفقد لمن هو كذلك.

وأما الفتنة فهي تحارب الناس ووقوع الحرب بينهم.

وأما الهوى فالغرام بالحدث، واللهو والشراب، والصيد، وما أشبه ذلك.

وأما الفظاظة فهي إفراط الشدة حتى يجمح اللسان بالشتم، واليد بالبطش في غير موضعهما.

وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين والموت، ونقص الثمرات، والغزوات، وأشباه ذلك.

وأما الخرق فإعمال الشدة في موضع اللين، واللين في موضع الشدة.

وإن الأسد قد أغرم بالثور إغرامًا شديدًا هو الذي ذكرت لك أنه خليق؛ لأن يشينه، ويضره في أمره.

قال كليلة: وكيف تطيق الثور وهو أشد منك، وأكرم على الأسد، وأكثر أعوانًا؟ قال دمنة: لا تنظر إلى صغري وضعفي؛ فإن الأمور ليست بالضعف، ولا القوة، ولا الصغر، ولا الكبر في الجثة؛ فرب صغيرٍ ضعيفٍ قد بلغ بحيلته، ودهائه، ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء.

أولم يبلغك أن غرابًا ضعيفًا احتال لأسود حتى قتله؟ قال كليلة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن غرابًا كان له وكرٌ في شجرةٍ على جبلٍ؛ وكان قريبًا منه جحر ثعبانٍ أسود، فكان الغراب إذا فرخ عمد الأسود إلى فراخه فأكله؛ فبلغ ذاك من الغراب وأحزنه، فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى؛ وقال له: أريد مشاورتك في أمرٍ قد عزمت عليه؛ قال: وما هو؟ قال الغراب: قد عزمت أن أذهب اليوم إلى الأسود إذا نام، فأنقر عينيه، فأفقأهما، لعلي أستريح منه.

قال ابن آوى: بئس الحيلة التي احتلت؛ فالتمس أمرًا تصيب فيه بغيتك من الأسود، من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها.

وإياك أن يكون مثلك مثل العلجوم الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه.

قال الغراب: وكيف كان ذلك؟

قال ابن آوى: زعموا أنَّ علجومًا عشَّش في أجمةٍ كثيرة السمك؛ فعاش بها ما عاش؛ ثم هرم فلم يستطع صيدًا؛ فأصابه جوعٌ وجهدٌ شديدٌ؛ فجلس حزينًا يلتمس الحيلة في أمره؛ فمر به سرطانٌ، فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن؛ فدنا منه، وقال: مالي أراك أيها الطائر هكذا حزينًا كئيبًا؟ قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما هاهنا من السمك؟ وإني قد رأيت

اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان؛ فقال أحدهما لصاحبه: إن هاهنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده أولًا؟ فقال الآخر: إني قد رأيت في مكان كذا سمكًا أكثر من هذا السمك، فلنبدأ بذلك، فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه.

وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هناك، انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها؛ فإذا كان ذلك فهو هلاكي ونفاد مدتي.

فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك؛ فأقبلن إلى العلجوم فاستشرنه؛ وقلن له: إنا أتينا لك لتشير علينا: فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه.

قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لي بها؛ ولا أعلم حيلةً إلا المصير إلى غديرٍ قريبٍ من هاهنا، فيه سمكٌ ومياهٌ عظيمةٌ وقصبٌ، فإن استطعن الانتقال إليه، كان فيه صلاحكن وخصبكن.

فقلن له: ما يمن علينا بذلك غيرك.

فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى ينتهي بهما إلى بعض التلال فيأكلهما؛ حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين؛ فجاءه السرطان؛ فقال له: إني أيضًا قد أشفقت من مكاني هذا واستوحشت منه فاذهب بي إلى ذلك الغدير؛ فاحتمله وطار به، حتى إذا دنا من التل الذي كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعةً هناك؛ فعلم أن العلجوم هو صاحبها؛ وأنه يريد به مثل ذلك.

فقال في نفسه: إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك.

سواءٌ قاتل أم لم يقاتل؛ كان حقيقًا أن يقاتل عن نفسه كرمًا وحفاظًا، ثم أهوى بكلبتيه على عنق العلجوم، فعصره فمات؛ وتخلص السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك.

وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لتعلم أن بعض الحيلة مهلكة للمحتال، ولكني أدلك على أمرٍ، إن أنت قدرت عليه، كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك، وتكون فيه سلامتك.

قال الغراب: وما ذاك؟ قال ابن آوى: تنطلق فتبصر في طيرانك: لعلك أن تظفر بشيءٍ من حلي النساء فتخطفه؛ ولا تزال طائرًا واقعًا، بحيث لا تفوت العيون، حتى تأتي جحر الأسود فترمي بالحلي عنده.

فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود.

فانطلق الغراب محلقًا في السماء؛ فوجد امرأةً من بنات العظماء فوق سطح تغتسل؛ وقد وضعت ثيابها وحليها ناحيةً؛ فانقض واختطف من حليها عقدًا، وطار به، فتبعه الناس؛ ولم يزل طائرًا واقعًا، بحيث يراه كل أحدٍ؛ حتى انتهى الأمر إلى جحر الأسود؛ فألقى العقد عليه، والناس ينظرون إليه.

فلما أتوه أخذوا العقد وقتلوا الأسود.

وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لتعلم أن الحيلة تجزئ ما لا تجزئ القوة.

قال كليلة: إن الثور لو لم يجتمع مع شدته رأيه لكان كما تقول.

ولكن له مع شدته وقوته حسن الرأي والعقل.

فماذا تستطيع له؟ قال دمنة: إن الثور لكما ذكرت في قوته ورأيه، ولكنه مقرٌّ لي بالفضل؛ وأنا خليق أن أصرعه كما صرعت الأرنب الأسد.

قال كليلة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن أسدًا كان في أرضٍ كثيرة المياه والعشب؛ وكان في تلك الأرض من الوحوش في سعة المياه والمرعى شيءٌ كثيرٌ؛ إلا أنه لم يكن ينفعها ذلك لخوفها من الأسد؛ فاجتمعت وأتت إلى الأسد، فقالت له: إنك لتصيب منا الدابة بعد الجهد والتعب؛ وقد رأينا لك رأيًا فيه صلاح لك وأمنٌ لنا.

فإن أنت أمَّنتنا ولم تخفنا، فلك علينا في كل يومٍ دابةٌ نرسل بها إليك في وقت غدائك: فرضي الأسد بذلك، وصالح الوحوش عليه، ووفين له به.

ثم إن أرنبًا أصابتها القرعة، وصارت غداء الأسد؛ فقالت للوحوش: إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضركن؛ رجوت أن أريحكن من الأسد.

فقالت الوحوش: وما الذي تكلفيننا من الأمور؟ قالت: تأمرن الذي ينطلق بي إلى الأسد أن يمهلني ريثما أبطئ عليه بعض الإبطاء.

فقلن لها: ذلك لك.

فانطلقت الأرنب متباطئةً؛ حتى جاوزت الوقت الذي كان يتغدى فيه الأسد.

ثم تقدمت إليه وحدها رويدًا، وقد جاع؛ فغضب وقام من مكانه نحوها؛ فقال لها: من أين أقبلت؟ قالت: أنا رسول الوحوش إليك: بعثني ومعي أرنبٌ

لك، فتبعني أسدٌ في بعض تلك الطريق، فأخذها مني، وقال: أنا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحش.

فقلت: إن هذا غداء الملك أرسلني به الوحوش إليه.

فلا تغصبنه، فسبك وشتمك.

فأقبلت مسرعةً لأخبرك.

فقال الأسد: انطلقي معي فأريني موضع هذا الأسد.

فانطلقت الأرنب إلى جب فيه ماءٌ غامرٌ صافٍ؛ فاطلعت فيه، وقالت: هذا المكان.

فاطلع الأسد، فرأى ظله وظل الأرنب في الماء؛ فلم يشك في قولها؛ ووثب إليه ليقاتله، فغرق في الجب.

فانقلبت الأرنب إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد.

قال كليلة: إن قدرت على هلاك الثور بشيءٍ ليس فيه مضرةٌ للأسد فشأنك؛ فإن الثور قد أضر بي وبك وبغيرنا من الجند؛ وإن أنت لم تقدر على ذلك إلا بهلاك الأسد، فلا تقدم عليه؛ فإنه غدرٌ مني ومنك.

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا كثيرةً؛ ثم أتاه على خلوةٍ منه؛ فقال له الأسد: ما حبسك عني؟ منذ زمانٍ لم أرك.

ألا لخيرٍ كان انقطاعك؟ قال دمنة: فليكن خيرًا أيها الملك.

قال الأسد: وهل حدث أمرٌ؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده، ولا أحد من جنده.

قال: وما ذاك؟ قال: كلامٌ فظيعٌ.

قال: أخبرني به.

قال دمنة إنه كلامٌ يكرهه سامعه، ولا يشجع عليه قائله.

وإنك أيها الملك لذو فضيلةٍ، ورأيك يدلك على أن يوجعني أن أقول ما تكره؛ وأثق بك أن تعرف نصحي وإيثاري إياك على نفسي.

وإنه ليعرض لي أنك غير مصدقي فيما أخبرك به؛ ولكني إذا تذكرت، وتفكرت أن نفوسنا -معاشر الوحوش- متعلقةٌ بك لم أجد بدًّا من أداء الحق الذي يلزمني، وإن أنت لم تسألني، وخفت ألا تقبل مني فإنه يقال: من كتم السلطان نصيحته والإخوان رأيه فقد خان نفسه.

قال الأسد: فما ذاك؟ قال دمنة: حدثني الأمين الصدوق عندي أن شترية خلا برءوس جندك، وقال: قد خبرت الأسد وبلوت رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي أن ذلك يئول منه إلى ضعفٍ وعجزٍ، وسيكون لي وله شأنٌ من الشئون.

فلما بلغني ذلك علمت أن شترية خوَّانٌ غدَّارٌ؛ وأنك أكرمته الكرامة كلها، وجعلته نظير نفسك، وهو يظن أنه مثلك.

وأنك متى زلت عن مكانك صار له ملكك؛ ولا يدع جهدًا إلا بلغه فيك.

وقد كان يقال: إذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه في المنزلة والحال فليصرعه؛ فإن لم يفعل به ذلك، كان هو المصروع.

وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها؛ والعاقل هو الذي يحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه؛ فإنك لا تأمن أن يكون ولا تستدركه.

فإنه يقال: الرجال ثلاثةٌ: حازمٌ، وأحزم منه، وعاجزٌ؛ فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يدهش له، ولم يذهب قلبه شعاعًا، ولم تعي به حيلته ومكيدته التي يرجو بها المخرج منه؛ وأحزم من هذا المتقدم ذو العدِة الذي يعرف الابتلاء قبل وقوعه، فيعظمه إعظامًا، ويحتال له حتى كأنه قد لزمه: فيحسم الداء قبل أن يُبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه.

وأما العاجز فهو في ترددٍ، وتمنٍّ، وتوانٍ حتى يهلك.

ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكاتٍ: كيِّسةٌ، وأكيس منها، وعاجزةٌ؛ وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحدٌ وبقربه نهر جارٍ.

فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان؛ فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك.

فسمع السمكات قولهما: فأما أكيسهن لما سمعت قولهما، وارتابت بهما، وتخوفت منهما؛ فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير.

وأما الكيِّسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان؛ فلما رأتهما، وعرفت ما يريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء؛ فإذا بهما قد سدَّا ذلك المكان فحينئذٍ قالت: فرطت، وهذه عاقبة التفريط؛ فكيف الحيلة على هذه الحال؟ وقلما تنجع حيلة العجلة والإرهاق، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ولا ييئس على حالٍ، ولا يدع الرأي والجهد.

ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارةً، وتارةً على بطنها؛ فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير؛ فوثبت إلى النهر فنجت.

وأما العاجزة فلم تزلْ في إقبال وإدبار حتى صيدت.

قال الأسد: قد فهمت ذلك؛ ولا أظن الثور يغشني ويرجو لي الغوائل.

وكيف يفعل ولم ير مني سوءًا قطُّ؟ ولم أدع خيرًا إلا فعلته معه؟ ولا أمنيةً إلا بلغته إياها؟.

قالْ دمنة: إن اللئيم لا يزال نافعًا ناصحًا حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل؛ فإذا بلغها التمس ما فوقها؛ ولا سيما أهل الخيانة والفجور؛ فإن اللئيم الفاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا من فرقٍ.

فإذا استغنى وذهبت الهيبة عاد إلى جوهره؛ كذنب الكلب الذي يربط ليستقيم فلا يزال مستويًا ما دام مربوطًا؛ فإذا حل انحنى واعوج كما كان.

واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نُصائِحه ما يثقل عليه مما ينصحون له به، لم يحمد رأيه؛ كالمريض الذي يدع ما يبعث له الطبيب؛ ويعمد إلى ما يشتهيه.

وحق على موازر السلطان أن يبالغ في التحضيض له على ما يزيد من سلطانه قوةً ويزينه؛ والكف عما يضره ويشينه؛ وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة؛ وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار؛ وأشرف الملوك من لم يخالطه بطرٌ؛ وخير الأخلاق أعونها على الورع.

وقد قيل: لو أن امرءًا توسد النار وافترش الحيات، كان أحق ألا يهنئه النوم.

والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوةٍ يريده بها؛ لا يطمئن إليه؛ وأعجز الملوك آخذهم بالهوينى، وأقلهم نظرًا في مستقبل الأمور.

وأشبههم بالفيل الهائج الذي لا يلتفت إلى شيء؛ فإن حزبه أمر تهاون به، وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه.

قال له الأسد: لقد أغلظت في القول؛ وقول الناصح مقبولٌ محمولٌ.

وإن كان شتربة معاديًا لي -كما تقول- فإنه لا يستطيع لي ضرًّا؛ وكيف يقدر على ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم؟ وإنما هو لي طعام، وليس عليَّ منه مخافةٌ.

ثم ليس إلى الغدر به سبيل بعد الأمان الذي جعلته له، وبعد إكرامي له، وثنائي عليه.

وإن غيرت ما كان مني وبدلته -سفهت رأيي وجهلت نفسي وغدرت بذمتي.

قال دمنة: لا يغرنك قولك: هو لي طعام، وليس عليَّ منه مخافةٌ؛ فإن شترية إن لم يستطعك بنفسه احتال لك من قِبَل غيره.

ويقال: إن استضافك ضيفٌ ساعةً من نهارٍ، وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك؛ ولا تأمن أن يصلك منه أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن قملة لزمت فراش رجلٍ من الأغنياء دهرًا، فكانت تصيب من دمه وهو نائمٌ لا يشعر، وتدبُّ دبيبًا رفيقًا؛ فمكث كذلك حينًا حتى استضافها ليلةً من الليالي برغوثٌ؛ فقالت له: بت الليلة عندنا في دمٍ طيبٍ وفراشٍ لينٍ؛ فأقام البرغوث عندها حتى إذا أوى الرجل إلى فراشه وثب عليه البرغوث فلدغه لدغةً أيقظته؛ وأطارت النوم عنه؛ فقام الرجل وأمر أن يفتش فراشه؛ فنظر فلم ير إلا القملة؛ فأخذت فقصعت وفر البرغوث.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب الشر بسببه.

وإن كنت لا تخاف من شترية، فخف غيره من جندك الذين قد حملهم عليك وعلى عداوتك، فوقع في نفس الأسد كلام دمنة.

فقال: فما الذي ترى إذًا؟ وبماذا تشير؟ قال دمنة: إن الضرس لا يزال متآكلًا، ولا يزال صاحبه منه في ألمٍ وأذًى حتى يفارقه.

والطعام الذي قد عفن في البطن، الراحة في قذفه.

والعدو المخوف دواؤه قتله.

قال الأسد: لقد تركتني أكره مجاورة شتربة إياي؛ وأنا مرسلٌ إليه، وذاكرًا له ما وقع في نفسي منه؛ ثم آمره باللحاق حيث أحب.

فكره دمنة ذلك، وعلم أن الأسد متى كلَّم شتربة في ذلك وسمع منه جوابًا عرف باطل ما أتى به، واطلع على غدره وكذبه؛ ولم يخفَ عليه أمره.

فقال للأسد: أما إرسالك إلى شتربة فلا أراه لك رأيًا ولا حزمًا؛ فلينظر الملك في ذلك؛ فإن شتربة متى شعر بهذا الأمر، خفت أن يعاجل الملك بالمكابرة.

وهو إن قاتلك قاتلك مستعدًّا؛ وإن فارقك فارقك فراقًا يليك منه النقص، ويلزمك منه العار.

مع أن ذوي الرأي من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه؛ ولكن لكل ذنب عندهم عقوبةٌ: فلذنب العلانية عقوبة العلانية، ولذنب السر عقوبة السر.

قال الأسد: إن الملك إذا عاقب أحدًا عن ظنةٍ ظنها من غير تيقن بجرمه، فنفسَه عاقب وإياها ظلم.

قال دمنة: أما إذا كان هذا رأي الملك، فلا يدخلن عليك شتربة إلا وأنت مستعدٌّ له؛ وإياك أن تصيبك منه غرةٌ أو غفلةٌ؛ فإني لا أحسب الملك حين يدخل عليه إلا سيعرف أنه قد هم بعظيمةٍ.

ومن علامات ذلك أنك ترى لونه متغيرًا؛ وترى أوصاله ترعد؛ وتراه ملتفتًا يمينًا وشمالًا؛ وتراه يهز قرنيه فعل الذي هم بالنطاح والقتال.

قال الأسد: سأكون منه على حذرٍ؛ وإن رأيت منه ما يدل على ما ذكرت علمت أن ما في أمره شكٌّ.

فلما فرغ دمنة من حمل الأسد على الثور، وعرف أنه قد وقع في نفسه ما كان يلتمس، وأن الأسد سيتحذر الثور، ويتهيأ له، أراد أن يأتي الثور ليغريه بالأسد؛ وأحب أن يكون إتيانه من قبل الأسد مخافة أن يبلغه ذلك فيتأذى به.

فقال: أيها الملك ألا آتي بشتربة فانظر إلى حاله وأمره؛ وأسمع كلامه: لعلي اطلع على سره، فأطلع الملك على ذلك، وعلى ما يظهر لي منه؟ فأذن له الأسد في ذلك.

فانطلق فدخل على شتربة كالكئيب الحزين.

فلما رآه الثور رحّب به، وقال: ما كان سبب انقطاعك عني؟ فإني لم أرك منذ أيامٍ؛ ولعلك في سلامةٍ! قال دمنة: ومتى كان أهل السلامة من لا يملك نفسه، وأمره بيد غيره ممن لا يوثق به، ولا ينفك على خطرٍ وخوفٍ.

حتى ما من ساعة تمر ويأمن فيها على نفسه.

قال شتربة: وما الذي حدث؟ قال دمنة: حدث ما قدر وهو كائنٌ.

ومن ذا الذي غالب القدر؟ ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيمًا من الأمور فلم يبطر؟ ومن ذا الذي بلغ مناه فلم يغتر؟ ومن ذا الذي تبع هواه فلم يخسر؟ ومن ذا الذي طلب من اللئام فلم يحرم؟ ومن ذا الذي خالط الأشرار فسلم؟ ومن ذا الذي صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان؟ قال شتربة: إني أسمع منك كلامًا يدل على أنه قد رابك من الأسد ريبٌ، وهالك منه أمرٌ.

قال دمنة: أجل، لقد رابني منه ذلك، وليس هو في أمر نفسي، قال شتربة: ففي نفس من رابك؟ قال دمنة: قد تعلم ما بيني وبينك، وتعلم حقك عليَّ، وما كنت جعلت لك من العهد والميثاق أيام أرسلني الأسد إليك، فلم أجد لك بدًّا من حفظك وإطلاعك على ما أطلعت عليه مما أخاف عليك منه.

قال شتربة: وما الذي بلغك؟ قال دمنة: حدثني الخبير الصدوق الذي لا مرية في قوله أن الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه: قد أعجبني سمن الثور؛ وليس لي إلى حياته حاجةٌ، فأنا آكله ومطعم أصحابي من لحمه.

فلما بلغني هذا القول، وعرفت غدره ونقض عهده؛ أقبلت إليك لأقضي حقك؛ وتحتال أنت لأمرك.

فلما سمع شتربة كلام دمنة، وتذكر ما كان من دمنة جعل له من العهد والميثاق، وفكر في أمر الأسد، ظن أن دمنة قد صَدَقَهُ ونصح له؛ ورأى أن الأمر شبيهٌ بما قال دمنة.

فأهمَّه ذلك؛ وقال: ما كان للأسد أن يغدر بي ولم آت إليه ذنبًا، ولا إلى أحد من جنده، منذ صحبته؛ ولا أظن الأسد إلا قد حمل عليَّ بالكذب، وشبه عليه أمري؛ فإن الأسد قد صحبه قوم سوءٍ؛ وجرَّب منهم الكذب وأمورًا هي

تصدق عنده ما بلغه من غيرهم؛ فإن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار؛ وحملته تجربته على الخطأ كخطأ البطة التي زعموا أنها رأت في الماء ضوء كوكبٍ، فظنته سمكةً، فحاولت أن تصيدها، فلما جربت ذلك مرارًا، علمت أنه ليس بشيءٍ يصاد فتركته.

ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكةً، فظنت أنها مثل الذي رأته بالأمس، فتركتها ولم تطلب صيدها.

فإن كان الأسد بلغه عني كذبٌ فصدقه عليَّ وسمعه فيَّ، فما جرى على غيري يجري عليَّ.

وإن كان لم يبلغه شيءٌ، وأراد السوء بي من غير علةٍ، فإن ذلك لمن أعجب الأمور.

وقد كان يقال: إن من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى.

وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط.

فإذا كانت الموجدة عن علةٍ، كان الرضا موجودًا والعفو مأمولًا.

وإذا كانت عن غير علةٍ، انقطع الرجاء؛ لأن العلة إذا كانت المودة في ورودها، كان الرضا مأمولًا في صدورها.

قد نظرت: فلا أعلم بيني وبين الأسد جرمًا، ولا صغير ذنب، ولا كبيره.

ولعمري ما يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يحترس في كل شيءٍ من أمره، ولا أن يتحفظ من أن يكون منه صغيرةٌ أو كبيرةٌ يكرهها صاحبه؛ ولكن

الرجل ذا العقل، وذا الوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطةً نظر فيها، وعرف قدر مبلغ خطئه عمدًا كان أو خطأ.

ثم ينظر هل في الصفح عنه أمرٌ يخاف ضره وشينه؟ فلا يؤاخذ صاحبه بشيء يجد فيه إلى الصفح عنه سبيلًا.

فإن كان الأسد قد اعتقد عليَّ ذنبًا؛ فلست أعلمه؛ إلا أني خالفته في بعض رأيه نصيحةً له؛ فعساه أن يكون قد أنزل أمري على الجراءة عليه والمخالفة له؛ ولا أجد لي في هذا المحضر إثمًا ما؛ لأني لم أخالفه في شيء إلا ما قد ندر من خالفة الرُّشد والمنفعة والدِّين، ولم أجاهر بشيء من ذلك على رءوس جنده وعند أصحابه؛ ولكني كنت أخلو به وأكلمه سرًّا كلام الهائب الموقر، وعلمت أنه من التمس الرخص من الإخوان عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة -أخطأ منافع الرأي؛ وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطًا، وحمل الوزر.

وإن لم يكن هذا، فعسى أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان؛ فإن مصاحبة السلطان خطرةٌ، وإن صوحب بالسلامة والثقة والمودة وحسن الصحبة.

وإن لم يكن هذا، فبعض ما أوتيت من الفضل قد جعل لي فيه الهلاك.

وإن لم يكن هذا ولا هذا، فهو إذًا من مواقع القضاء والقدر الذي لا يدفع عنه؛ وهو الذي يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج؛ وهو الذي يسلط على الحية ذات الحمة من ينزع حمتها ويلعب بها؛ وهو الذي يجعل العاجز

حازمًا، ويثبط الشهم، ويوسع على المقتر، ويشجع الجبان، ويجبن الشجاع عندما تعتريه المقادير من العلل التي وضعت عليه الأقدار.

قال دمنة: إن إرادة الأسد بك ليست من تحميل الأشرار، ولا سكرة السلطان، ولا غير ذلك، ولكنها الغدر، والفجور منه؛ فإنه فاجرٌ خوانٌ غدارٌ، لطعامه حلاوةٌ، وآخره سمٌّ مميتٌ.

قال شتربة: فأراني قد استلذذت الحلاوة إذ ذقتها: وقد انتهيت إلى آخرها الذي هو الموت؛ ولولا الحين ما كان مقامي عند الأسد، وهو آكل لحمٍ وأنا آكل عشبٍ فأنا في هذه الورطة كالنحلة التي تجلس على نور النيلوفر؛ إذ تستلذ ريحه وطعمه، فتحبسها تلك اللذة؛ فإذا جاء الليل ينضم عليها، فترتبك فيه وتموت.

ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف الذي يغنيه، وطمحت عينه إلى ما سوى ذلك، ولم يتخوف من عاقبتها -كان كالذباب الذي لا يرضى بالشجرة والرياحين، ولا يقنعه ذلك، حتى يطلب الماء الذي يسيل من أذن الفيل، فيضربه الفيل بآذانه فيهلكه.

ومن يبذل وده ونصيحته لمن لا يشكره، فهو كمن يبذر في السباخ.

ومن يشر على المعجب فهو كمن يشاور الميت، أو يسار الأصم.

قال دمنة: دع عنك هذا الكلام واحتل لنفسك.

قال شتربة: بأي شيءٍ أحتال لنفسي، إذا أراد الأسد أكلي، مع ما عرفتني به من رأي الأسد وسوء أخلاقه؟ وأعلم أنه لم يرد بي إلا خيرًا، ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي لقدروا على ذلك؛ فإنه إذا اجتمع المكرة الظلمة

على البريء الصحيح، كانوا خلقاء أن يهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وهو قوي؛ كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال شتربة: زعموا أن أسدًا كان في أجمةٍ مجاورةٍ لطريقٍ من طرق الناس؛ وكان له أصحابٌ ثلاثةٌ: ذئبٌ، وغرابٌ، وابن آوى؛ وأن رعاةً مروا بذلك الطريق، ومعهم جمالٌ، فتخلف منها جملٌ، فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد؛ فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ قال: من موضع كذا.

قال: فما حاجتك؟ قال: ما يأمرني به الملك.

قال: تقيم عندنا في السعة والأمن والخصب.

فأقام الأسد والجمل معه زمنًا طويلًا.

ثم إن الأسد مضى في بعض الأيام لطلب الصيد، فلقي فيلًا عظيمًا، فقاتله قتالًا شديدًا؛ وأفلت منه مثقلًا مثخنًا بالجراح، يسيل منه الدم، وقد خدشه الفيل بأنيابه.

فلما وصل إلى مكانه، وقع لا يستطيع حراكًا، ولا يقدر على طلب الصيد؛ فلبث الذئب، والغراب، وابن آوى أيامًا لا يجدون طعامًا: لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه؛ فأصابهم جوعٌ شديدٌ وهزالٌ، وعرف الأسد ذلك منهم؛ فقال: لقد جهدتم واحتجتم إلى ما تأكلون.

فقالوا: لا تهمنا أنفسنا، لكنا نرى الملك على ما نراه.

فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه.

قال الأسد: ما أشك في نصيحتكم، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدًا تأتونني به؛ فيصيبني ويصيبكم منه رزقٌ.

فخرج الذئب، والغراب، وابن آوى من عند الأسد؛ فتنحوا ناحيةً، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا: ما لنا ولهذا الآكل العشب الذي ليس شأنه من شأننا، ولا رأيه من رأينا؟ ألا نزين للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى: هذا مما لا نستطيع ذكره للأسد؛ لأنه قد أمَّن الجمل، وجعل له من ذمته عهدًا.

قال الغراب: أنا أكفيكم أمر الأسد.

ثم انطلق فدخل على الأسد؛ فقال له الأسد: هل أصبت شيئًا؟ قال الغراب: إنما يصيب من يسعى ويبصر.

وأما نحن فلا سعي لنا ولا بصر؛ لما بنا من الجوع؛ ولكن قد وفقنا لرأي واجتمعنا عليه؛ إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون.

قال الأسد: وما ذاك؟ قال الغراب: هذا الجمل آكل العشب المتمرِّغ بيننا من غير منفعة لنا منه، ولا رد عائدةٍ، ولا عمل يعقب مصلحةً.

فلما سمع الأسد ذلك غضب، وقال: ما أخطأ رأيك! وما أعجز مقالك، وأبعدك من الوفاء والرحمة! وما كنت حقيقًا أن تجتري عليَّ بهذه المقالة، وتستقبلني بهذا الخطاب؛ مع ما علمت من أني قد أمَّنت الجمل، وجعلت له من ذمتي.

أو لم يبلغك أنه لم يتصدق متصدقٌ بصدقةٍ هي أعظم أجرًا ممن أمَّن نفسًا خائفةً، وحقن دمًا مهدرًا؟ وقد أمَّنته ولست بغادر به.

قال الغراب: إني لأعرف ما يقول الملك؛ ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت؛ وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة؛ والقبيلة يفتدى بها أهل المصر؛ وأهل المصر فداء الملك.

وقد نزلت بالملك الحاجة؛ وأنا أجعل له من ذمته مخرجًا، على ألا يتكلف الملك ذلك، ولا يليه بنفسه، ولا يأمر به أحدًا؛ ولكنا نحتال بحيلةٍ لنا وله فيها إصلاحٌ وظفرٌ.

فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب.

فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتى أصحابه، فقال لهم: قد كلمت الأسد في أكله الجمل؛ على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد، فنذكر ما أصابه، ونتوجع له اهتمامًا منا بأمره، وحرصًا على صلاحه؛ ويعرض كل واحدٍ منا نفسه عليه تجملًا ليأكله، فيرد الآخران عليه، ويسفها رأيه، ويبينان الضرر في أكله.

فإذا فعلنا ذلك سلمنا كلنا، ورضي الأسد عنا.

ففعلوا ذلك، وتقدموا إلى الأسد؛ فقال الغراب: قد احتجت أيها الملك إلى ما يقويك؛ ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك: فإنا بك نعيش؛ فإذا هلكت فليس لأحدٍ منا بقاءٌ عندك، ولا لنا في الحياة من خيرةٍ؛ فليأكلني الملك: فقد طبت بذلك نفسًا.

فأجابه الذئب وابن آوى أن اسكت؛ فلا خير للملك في أكلك؛ وليس فيك شبعٌ.

قال ابن آوى: لكن أنا أشبع الملك، فليأكلني؛ فقد رضيت بذلك، وطبت عنه نفسًا.

فرد عليه الذئب والغراب بقولهما: إنك لمنتنٌ قذرٌ.

قال الذئب: إني لست كذلك، فليأكلني الملك، فقد سمحت بذلك، وطبت عنه نفسًا؛ فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا: قد قالت الأطباء: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئبٍ.

فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل، التمسوا له عذرًا كما التمس بعضهم لبعضٍ الأعذار، فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك، وينجو من المهالك.

فقال: لكن أنا فيَّ للملك شبعٌ وريٌّ؛ ولحمي طيبٌ هنيٌّ، وبطني نظيفٌ، فليأكلني الملك، ويطعم أصحابه وخدمه؛ فقد رضيت بذلك، وطابت نفسي عنه، وسمحت به.

فقال الذئب والغراب وابن آوى: لقد صدق الجمل وكرم؛ وقال ما عرف.

ثم إنهم وثبوا عليه فمزقوه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الأسد قد اجتمعوا على هلاكي -فإني لست أقدر أن أمتنع منهم، ولا أحترس؛ وإن كان رأي الأسد لي على غير ما هم من الرأي فيَّ، فلا ينفعني ذلك، ولا يغني عني شيئًا.

وقد يقال: خير السلاطين من عدل في الناس.

ولو أن الأسد لم يكن في نفسه لي إلا الخير والرحمة لغيرته كثرة الأقاويل؛ فإنها إذا كثرت لم تلبث دون أن تذهب الرقة والرأفة.

ألا ترى الماء ليس كالقول؛ وأن الحجر لم يلبث حتى يثقبه ويؤثر فيه؟ وكذلك القول في الإنسان.

قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع الآن؟ قال شتربة: ما أرى إلا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال: فإنه ليس للمصلي في صلاته، ولا للمتصدق في صدقته، ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه، إذا كانت مجاهدته على الحق.

قال دمنة: لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه، وهو يستطيع غير ذلك، ولكن ذا الرأي جاعل القتال آخر الحيل؛ وباديءٍ قبل ذلك بما استطاع من رفقٍ وتمحلٍ.

وقد قيل: لا تحقرن العدو الضعيف المهين، ولا سيما إذا كان ذا حيلةٍ ويقدر على الأعوان؛ فكيف بالأسد على جراءته وشدته؟ فإن من حقر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى.

قال شتربة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن طائرًا من طيور البحر يقال له: الطيطوى كان وطنه على ساحل البحر، ومعه زوجةٌ له، فلما جاء أوان تفريخها قالت الأنثى للذكر: لو التمسنا مكانًا حريزًا نفرخ فيه؛ فإني أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا.

فقال لها: أفرخي مكانك؛ فإنه موافق لنا؛ والماء والزهر منا قريبٌ.

قالت له: يا غافل ليحسن نظرك، ما أشد تعنتك ! أما تذكر وعيده وتهديده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبى أن يطيعها.

فلما أكثرت عليه، ولم يسمع قولها، قالت له: إنَّ من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين.

قال الذكر: وكيف كان ذلك؟ قالت الأنثى: زعموا أن غديرًا كان عنده عشبٌ، وكان فيه بطتان، وكان في الغدير سلحفاةٌ، بينها وبين البطتين مودةٌ وصداقةٌ، فاتفق أن غيض ذلك الماء؛ فجاءت البطتان لوداع السلحفاة، وقالتا: السلام عليك؛ فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه.

فقالت: إنما يبين نقصان الماء على مثلي: فإني كالسفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء.

فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما، فاذهبا بي معكما.

قالتا لها: نعم.

قالت: كيف السبيل إلى حملي؟ قالتا: نأخذ بطرفي عودٍ، وتتعلقين بوسطه؛ ونطير بك في الجو.

وإياك -إذا سمعت الناس يتكلمون- أن تنطقي.

ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو.

فقال الناس: عجبٌ، سلحفاة بين بطتين، قد حملتاها.

فلما سمعت ذلك قالت: فقأ الله أعينكم أيها الناس، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت.

قال الذكر: قد سمعت مقالتك؛ فلا تخافي وكيل البحر.

فلما مد الماء ذهب بفراخها.

فقالت الأنثى: قد عرفت في بدء الأمر أن هذا كائنٌ.

قال الذكر: سوف أنتقم منه، ثم مضى إلى جماعة الطير، فقال لهن: إنكن أخواتي وثقاتي فأعنني.

قلن: ما تريد أن نفعل؟ قال: تجتمعن وتذهبن معي إلى سائر الطير، فنشكو إليهن ما لقيت من وكيل البحر؛ ونقول لهن: إنكن طيرٌ مثلنا فأعنّنا.

فقالت له جماعة الطير: إن العنقاء هي سيدتنا وملكتنا: فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها، فتظهر لنا؛ فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر؛ ونسألها أن تنتقم لنا بقوة ملكها.

ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوى، فاستغثنها؛ وصحن بها؛ فتراءت لهن فأخبرنها بقصتهن؛ وسألنها أن تسير معهن إلى محاربة وكيل البحر، فأجابتهن إلى ذلك.

فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته في جماعة الطير خاف من محاربة ملكٍ لا طاقة له به.

فرد فراخ الطيطوى؛ وصالحه فرجعت العنقاء عنه.

وإنما حدثتك بهذا الحديث؛ لتعلم أن القتال مع الأسد لا أراه لك رأيًا.

قال شتربة: فما أنا بمقاتل الأسد، ولا ناصب له العداوة سرًّا ولا علانيةً، ولا متغيرٍ له عما كنت عليه، حتى يبدو لي منه ما أتخوف فأغالبه.

فكره دمنة قوله، وعلم أن الأسد إن لم ير من الثور العلامات التي ذكرها له اتهمه، وأساء به الظن.

فقال دمنة لشترية: اذهب إلى الأسد فستعرف حين ينظر إليك ما يريد منك.

قال شترية: وكيف أعرف ذلك؟ قال دمنة: سترى الأسد حين تدخل عليه مقعيًا على ذنبه، رافعًا صدره إليك، مادًا بصره نحوك، قد صر أذنيه وفغر فاه، واستوى للوثبة.

قال شترية: إن رأيت هذه العلامات من الأسد عرفت صدقك في قولك.

ثم إن دمنة لما فرغ من حمل الأسد على الثور، والثور على الأسد توجه إلى كليلة.

فلما التقيا، قال كليلة: إلام انتهى عملك الذي كنت فيه؟ قال دمنة: قريبٌ من الفراغ على ما أحب وتحب.

ثم إن كليلة ودمنة انطلقا جميعًا ليحضرا قتال الأسد والثور، وينظرا ما يجري بينهما، ويعاينا ما يئول إليه أمرهما.

وجاء شترية، فدخل على الأسد، فرآه مقعيًا كما وصفه له دمنة، فقال: ما صاحب السلطان إلا كصاحب الحية التي في مبيته ومقيله، فلا يدري متى تهيج به.

ثم إن الأسد نظر إلى الثور فرأى الدلالات التي ذكرها له دمنة -فلم يشك أنه جاء لقتاله.

فواثبه، ونشأ بينهما الحرب، واشتد قتال الثور والأسد، وطال، وسالت بينهما الدماء.

فلما رأى كليلة أن الأسد قد بلغ منه ما قد بلغ.

قال لدمنة: أيها الفسل ما أنكر جهلتك! وأسوأ عاقبتك في تدبيرك! قال دمنة: وما ذاك؟ قال كليلة: جرح الأسد وهلك الثور.

وإن أخرق الخرق من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال، وهو يجد إلى غير ذلك سبيلًا.

وإن العاقل يدبر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها؛ فما رجا أن يتم له منها أقدم عليه، وما خاف أن يتعذر عليه منها انحرف عنه، ولم يلتفت إليه.

وإني لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا؛ فإنك قد أحسنت القول، ولم تحسن العمل.

أين معاهدتك إياي أنك لا تضر بالأسد في تدبيرك؟ وقد قيل: لا خير في القول إلا مع العمل، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع النية، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الحياة إلا مع الصحة، ولا في الأمن إلا مع السرور.

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش، ويزيد الأحمق طيشًا؛ كما أن النهار يزيد كل ذي بصر نظرًا، ويزيد الخفاش سوء النظر.

وقد أذكرني أمرك شيئًا سمعته، فإن يقال: إن السلطان إذا كان صالحًا، ووزراؤه وزراء سوءٍ، منعوا خيره، فلا يقدر أحدٌ أن يدنو منه.

ومثله في ذلك مثل الماء الطيب الذي فيه التماسيح: لا يقدر أحدٌ أن يتناوله، وإن كان إلى الماء محتاجًا.

وأنت يا دمنة أردت ألا يدنو من الأسد أحد سواك.

وهذا أمرٌ لا يصح، ولا يتم أبدًا.

وذلك للمثل المضروب: إن البحر بأمواجه، والسلطان بأصحابه.

ومن الحمق الحرص على التماس الإخوان بغير الوفاء لهم، وطلب الآخرة بالرياء، ونفع النفس بغير الضر.

وما عظتي وتأديبي إياك إلا كما قال الرجل للطائر: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم، ولا تعالج تأديب من لا يتأدب.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أن جماعةً من القردة كانوا سكانًا في جبلٍ، فالتمسوا في ليلةٍ باردةٍ ذات رياح وأمطارٍ نارًا، فلم يجدوا، فرأوا يراعةً تطير كأنها شرارة نارٍ؛ فظنوها نارًا، وجمعوا حطبًا كثيرًا فألقوه عليها، وجعلوا ينفخون طمعًا أن يوقدوا نارًا يصطلون بها من البرد.

وكان قريبًا منهم طائر على شجرةٍ، ينظرون إليه وينظر إليهم، وقد رأى ما صنعوا، فجعل يناديهم ويقول: لا تتعبوا فإن الذي رأيتموه ليس بنارٍ.

فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه، فمر به رجلٌ فعرف ما عزم عليه.

فقال له: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم؛ فإن الحجر الصلب الذي لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف، والعود الذي لا ينحني لا يعمل منه القوس: فلا تتعب.

فأبى الطائر أن يطيعه، وتقدم إلى القردة؛ ليعرفهم أن البراعة ليست بنارٍ.

فتناوله بعض القردة فضرب به الأرض فمات.

فهذا مثلي معك في ذلك.

ثم قد غلب عليك الخبُّ والفجور، وهما خلتا سوءٍ، والخبَ شرهما عاقبةً.

ولهذا مثل.

قال دمنة: وما ذلك المثل؟

قال كليلة: زعموا أن خبًّا ومغفلًا اشتركا في تجارةٍ وسافرا، فبينما هما في الطريق، إذ تخلف المغفل لبعض حاجته، فوجد كيسًا فيه ألف دينار، فأخذه؛ فأحس به الخب، فرجعا إلى بلدهما؛ حتى إذا دنوا من المدينة قعدا لاقتسام المال.

فقال المغفل: خذ نصفه وأعطني نصفه؛ وكان الخب قد قرر في نفسه أن يذهب بالألف جميعه.

فقال له: لا نقتسم، فإن الشركة والمفاوضة أقرب إلى الصفاء والمخالطة؛ ولكن آخذ نفقةً، وتأخذ مثلها؛ وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة: فهو مكانٌ حريزٌ.

فإذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حاجتنا منه؛ ولا يعلم بموضعنا أحدٌ.

فأخذا منه يسيرًا، ودفنا الباقي في أصل دوحةٍ، ودخلا البلد.

ثم إن الخب خالف المغفل إلى الدنانير فأخذها، وسوى الأرض كما كانت.

وجاء المغفل بعد ذلك بأشهر، فقال للخب: قد احتجت إلى نفقةٍ فانطلق بنا نأخذ حاجتنا؛ فقام الخب معه وذهبا إلى المكان فحفرا، فلم يجدا شيئًا.

فأقبل الخب على وجهه يلطمه يقول: لا تغتر بصحبة صاحب؛ خالفتني إلى الدنانير فأخذتها.

فجعل المغفل يحلف ويلعن آخذها ولا يزداد الخب إلا شدة في اللطم.

وقال: ما أخذها غيرك.

وهل شعر بها أحدٌ سواك؟ ثم طال ذلك بينهما، فترافعا إلى القاضي، فاقتص القاضي قصتهما، فادعى الخب أن المغفل أخذها، وجحد المغفل.

فقال للخب: ألك على دعواك بينة؟ قال: نعم الشجرة التي كانت الدنانير عندها تشهد لي أن المغفل أخذها.

وكان الخب قد أمر أباه أن يذهب فيتوارى في الشجرة بحيث إذا سئلت أجاب.

فذهب أبو الخب فدخل جوف الشجرة.

ثم إن القاضي لما سمع ذلك من الخب أكبره، وانطلق هو وأصحابه والخب والمغفل معه؛ حتى وافى الشجرة؛ فسألها عن الخبر.

فقال الشيخ من جوفها: نعم المغفل أخذها.

فلما سمع القاضي ذلك اشتد تعجبه.

فدعا بحطب وأمر أن تحرق الشجرة.

فأضرمت حولها النيران فاستغاث أبو الخب عند ذلك.

فأخرج وقد أشرف على الهلاك.

فسأله القاضي عن القصة فأخبره بالخبر؛ فأوقع بالخب ضربًا، وبأبيه صفعًا، وأركبه مشهورًا، وغرّم الخب الدنانير فأخذها وأعطاها المغفل.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعمل أن الخب والخديعة ربما كان صاحبها هو المغبون، وإنك يا دمنة جامعٌ للخب والخديعة والفجور.

وإني أخشى عليك ثمرة عملك، مع أنك لست بناجٍ من العقوبة؛ لأنك ذو لونين ولسانين.

وإنما عذوبة ماء الأنهار ما لم تبلغ إلى البحار، وصلاح أهل البيت ما لم يكن فيهم المفسد، وإنه لا شيء أشبه بك من الحية ذات اللسانين التي فيها السم؛ فإنه قد يجري من لسانك كسمها، وإني لم أزل لذلك السم من لسانك خائفًا، ولما يحل بك متوقعًا، والمفسد بين الإخوان والأصحاب كالحية يربيها الرجل، ويطعمها، ويمسحها، ويكرمها، ثم لا يكون له منها غير اللدغ.

وقد يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليهما، وإياك ومفارقتهما؛ واصحب الصاحب إذا كان عاقلًا كريمًا، أو عاقلًا غير كريم؛ فالعاقل الكريم كاملٌ، والعاقل غير الكريم أصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة، واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل، الزمه ولا تدع مواصلته، وإن

كنت لا تحمد عقله، وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك؛ والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق.

وإني بالفرار منك لجديرٌ.

وكيف يرجو إخوانك عندك كرمًا وودًّا وقد صنعت بملكك الذي أكرمك وشرفك ما صنعت؟ وإن مثلك مثل التاجر الذي قال: إن أرضًا تأكل جرذانها مائة منٍّ حديدًا، ليس بمستنكر على بزاتها أن تختطف الأفيال.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال كليلة: زعموا أنه كان بأرض كذا تاجرٌ، فأراد الخروج إلى بعض الوجوه لابتغاء الرزق؛ وكان عنده مائة منٍّ حديدًا؛ فأودعها رجلًا من إخوانه، وذهب في وجهه.

ثم قدم بعد ذلك بمدةٍ؛ فجاء والتمس الحديد، فقال له: إنه قد أكلته الجرذان.

فقال: قد سمعت أنه لاشيء أقطع من أنيابها للحديد.

ففرح الرجل بتصديقه على ما قال وادعى.

ثم إن التاجر خرج، فلقي ابنًا للرجل؛ فأخذه وذهب به إلى منزله؛ ثم رجع إليه الرجل من الغد، فقال له: هل عندك علم بابني؟ فقال له التاجر: إني لما خرجت من عندك بالأمس، رأيت بازيًا قد اختطف صبيًّا، ولعله ابنك.

فلطم الرجل على رأسه، وقال: يا قوم هل سمعتم، أو رأيتم أن البزاة تختطف الصبيان؟ فقال: نعم.

وإن أرضًا تأكل جرذانها مائة منٍّ حديدًا ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة.

قال له الرجل: أنا أكلت حديدك وهذا ثمنه.

فاردد عليّ ابني.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فلا شك أنك بمن سواه أغدر؛ وأنه إذا صاحب أحد صاحبًا، وغدر بمن سواه -فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضعٌ؛ فلا شيء أضيع من مودةٍ تمنح من لا وفاء له، وحباءٍ يصطنع عند من لا شكر له، وأدبٍ يحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسرٍّ يستودع من لا يحفظه؛ فإن صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر: كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيبًا، وإذا مرت بالنتن حملت نتنًا، وقد طال وثقل كلامي عليك.

فانتهى كليلة من كلامه إلى هذا المكان وقد فرغ الأسد من الثور، ثم فكر في قتله بعد أن قتله، وذهب عنه الغضب.

وقال: لقد فجعني شتربة بنفسه؛ وقد كان ذا عقلٍ ورأيٍ وخلقٍ كريمٍ، ولا أدري لعله كان بريئًا أو مكذوبًا عليه؛ فحزن وندم على ما كان منه، وتبين ذلك في وجهه؛ وبصر به دمنة، فترك محاورة كليلة، وتقدم إلى الأسد فقال له: ليهنئك الظفر إذ أهلك الله أعداءك.

فماذا يحزنك أيها الملك؟ قال: أنا حزينٌ على عقل شتربة، ورأيه، وأدبه؟ قال له دمنة: لا ترحمه أيها الملك؛ فإن العاقل لا يرحم من يخافه.

وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه، ثم قربه وأدناه: لما يعلم عنده من الغناء والكفاية، فعل الرجل المتكاره على الدواء الشنيع رجاء منفعته.

وربما أحب الرجل، وعز عليه، فأقصاه وأهلكه، مخافة ضرره؛ كالذي تلدغه الحية في إصبعه فيقطعها، ويتبرأ منها مخافة أن يسري سمها إلى بدنه.

فرضي الأسد بقول دمنة؛ ثم علم بعد ذلك بكذبه، وغدره، وفجوره، فقتله شر قتلةٍ.

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد حدثتني عن الواشي الماهر المحتال، كيف يفسد بالنميمة المودة الثابتة بين المتحابين.

فحدثني حينئذٍ بما كان من حال دمنة، وما آل أمره إليه بعد قتل شتربة، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه حين راجع الأسد رأيه في الثور، وتحقق النميمة من دمنة، وما كانت حجته التي احتج بها؛ قال الفيلسوف: أنا وجدت في حديث دمنة أن الأسد حين قتل شتربة ندم على قتله، وذكر قديم صحبته وجسيم خدمته، وأنه كان أكرم أصحابه عليه.

وأخصهم منزلةً لديه، وأقربهم وأدناهم إليه؛ وكان يواصل له المشورة دون خواصه.

وكان من أخص أصحابه عنده بعد الثور النمر.

فاتفق أنه أمسى لنمر ذات ليلةٍ عند الأسد؛ فخرج من عنده جوف الليل يريد منزله، فاجتاز على منزل كليلة ودمنة.

فلما انتهى إلى الباب سمع كليلة يعاتب دمنة على ما كان منه، ويلومه على النميمة واستعمالها؛ خصوصًا مع الكذب والبهتان في حق الخاصة.

وعرف النمر عصيان دمنة، وترك القبول له.

فوقف يستمع ما يجري بينهما فكان فيما قال كليلة لدمنة: لقد ارتكبت مركبًا صعبًا، ودخلت مدخلًا ضيقًا، وجنيت على نفسك جناية موبقة، وعاقبتها وخيمةٌ؛ وسوف يكون مصرعك شديدًا، إذا انكشف للأسد أمرك، واطلع عليه، وعرف غدرك ومحالك، وبقيت لا ناصر لك؛ فيجتمع عليك الهوان والقتل، مخافة شرك، وحذرًا من غوائلك؛ فلست بمتخذك بعد اليوم خليلًا، ولا مفشٍ إليك سرًّا؛ لأن العلماء قد قالوا: تباعد عمن لا رغبة فيه، وأنا جدير بمباعدتك، والتماس الخلاص لي مما وقع في نفس الأسد من هذا الأمر.

فلما سمع النمر هذا من كلامهما قفل راجعًا، فدخل على أم الأسد؛ فأخذ عليها العهود ومواثيق أن لا تفشي ما يسر إليها، فعاهدته على ذلك فأخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة.

فلما أصبحت دخلت على الأسد، فوجدته كئيبًا حزينًا مهمومًا؛ لما ورد عليه من قتل شترية، فقالت له: ما هذا الهم الذي قد أخذ منك، وغلب عليك؟ قال: يحزنني قتل شترية؛ إذ تذكرت صحبته ومواظبته على خدمتي، وما كنت أسمع من مناصحته.

قالت أم الأسد: إن أشد ما شهد امرؤٌ بلا علم ولا يقين؟ ولولا ما قالت العلماء في إذاعة الأسرار وما فيها من الإثم والشنار، لذكرت لك ولأخبرتك بما علمت.

قال الأسد: إن أقوال العلماء لها وجوهٌ كثيرةٌ، ومعانٍ مختلفةٌ.

وإني لأعلم صواب ما تقولين: وإن كان عندك رأي فلا تطويه عني؛ وإن كان قد أسر إليك أحدٌ سرًا فأخبريني به، وأطلعيني عليه، وعلى جملة الأمر.

فأخبرته بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تخبره باسمه.

وقال: إني لم أجهل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها، وما يدخل على الرجل من العار في إذاعة الأسرار؛ ولكني أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك؛ وإن وصل خطؤه وضرره إلى العامة فإصرارهم على خيانة الملك مما لا يدفع الشر عنهم، وبه يحتج السفهاء، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة.

وأشد معارهم إقدامهم على ذي الحزم.

فلما قضت أم الأسد هذا الكلام، استدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه.

ثم أمر أن يؤتى بدمنة.

فلما وقف بين يدي الأسد، ورأى ما هو عليه من الحزن والكآبة، التفت إلى بعض الحاضرين، فقال: ما الذي حدث؟ وما الذي أحزن الملك؟ فالتفتت أم الأسد إليه، وقالت: قد أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين؛ ولن يدعك بعد اليوم حيًّا! قال دمنة: ما ترك الأول للآخر شيئًا؛ لأنه يقال: أشد الناس في توقِّي الشر، يصيبه الشر قبل المستسلم له.

فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء؛ وقد علمت أنه قد قيل: من صحب الأشرار -وهو يعلم حالهم- كان أذاه من نفسه: ولذلك انقطعت

النساك بأنفسها عن الخلق، واختارت الوحدة على المخالطة، وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها.

ومن يجزي بالخير خيرًا وبالإحسان إحسانًا إلا الله؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس.

وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق ومواقع الصواب وجميل السير؛ وقد قالت العلماء: من صدَّق ما ينبغي أن يكذَّب، وكذَّب ما ينبغي أن يصدَّق -خرج من مصاف العقلاء، وكان جديرًا بالازدراء.

فينبغي ألا يعجل الملك في أمري بشبهةٍ.

ولست أقول هذا كراهةً للموت؛ فإنه وإن كان كريهًا، لا منجى منه، وكل حيٍّ هالكٌ.

ولو كانت لي مائة نفسٍ، وأعلم أن هوى الملك في إتلافهن، لطبت له بذلك نفسًا.

فقال بعض الجند: لم ينطق بهذا لحبه بالملك، ولكن لخلاص نفسه، والتماس العذر لها.

فقال لها دمنة: ويلك! وهل عليَّ في التماس العذر لنفسي عيبٌ؟ وهل أحدٌ أقرب إلى الإنسان من نفسه؟ وإذا لم يلتمس لها العذر، فمن يلتمسه؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء؛ ولقد عرف من سمع منك ذلك أنك لا تحب لأحدٍ خيرًا؛ وأنك عدو نفسك، فمن سواها بالأولى.

فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم، فضلًا عن أن يكون مع الملك، وأن يكون ببابه.

فلما أجابه دمنة بذلك، خرج مكتئبًا حزينًا مستحيًا.

فقالت أم الأسد لدمنة: لقد عجبن منك، أيها المحتال، في قلة حيائك، وكثرة وقاحتك، وسرعة جوابك لمن كلمك.

قال دمنة: لأنك تنظرين إليَّ بعينٍ واحدةٍ، وتسمعين مني بأذنٍ واحدةٍ، مع أن شقاوة جدي قد زوت عني كل شيء، حتى لقد سعوا إلى الملك بالنميمة عليَّ، ولقد صار من بباب الملك لاستخفافهم به، وطول كرامته إياهم، وما هم فيه من العيش والنعمة، لا يدرون في أي وقت ينبغي لهم الكلام، ولا متى يجب عليهم السكوت.

قالت: ألا تنظرون إلى هذا الشقي، مع عظم ذنبه، كيف يجعل نفسه بريئًا كمن لا ذنب له؟ قال دمنة: إن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء؛ كالذي يضع الرماد موضعًا ينبغي أن يضع فيه الرمل؛ ويستعمل فيه السرجين، والرجل الذي يلبس لباس المرأة، والمرأة التي تلبس لباس الرجل، والضيف الذي يقول: أنا رب البيت، والذي ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه.

وإنما الشقي من لا يعرف الأمور ولا أحوال الناس لا يقدر على دفع الشر عن نفسه، ولا يستطيع ذلك.

قالت أم الأسد: أتظن أيها الغادر المحتال بقولك هذا أنك تخدع الملك، ولا يسجنك؟ قال دمنة: الغادر الذي لا يأمن عدوه مكره، وإذا استمكن من عدوه قتله على غير ذنب.

قالت أم الأسد: أيها الغادرُ الكذوب، أتظن أنك ناجٍ من عاقبة كذبك؟ وأن محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك؟ قال دمنة: الكذوب هو الذي يقول ما لم يكن، ويأتي بما لم يقل ولم يفعل، وكلامي واضحٌ مبينٌ.

قالت أم الأسد: العلماء منكم هم الذين يوضحون أمره بفصل الخطاب.

ثم نهضت فخرجت.

فدفع الأسدُ دمنة إلى القاضي، فأمر بحبسه، فألقي في عنقه حبلٌ، وانطلق به إلى السجن.

فلما انتصف الليل أخبر كليلة أن دمنة في الحبس.

فأتاه مستخفيًا؛ فلما رآه وما هو عليه من ضيق القيود، وحرج المكان - بكى، وقال له: ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا لاستعمالك الخديعة والمكر، وإضرابك عن العظة؛ ولكن لم يكن لديَّ بدٌّ فيما مضى من إنذارك والنصيحة لك والمسارعة إليك في خلوص الرغبة فيك؛ فإنه لكل مقامٍ مقالٌ؛ ولكل موضعٍ مجالٌ.

ولو كنت قصرتُ في عظتك حين كنت في عافية، لكنت اليوم شريكك في ذنبك؛ غير أن العجب دخل منك مدخلًا قهرَ رأيك، وغلب على عقلك؛ وكنت أضرب لك الأمثال كثيرًا، وأذكرك قول العلماء.

وقد قالت العلماء: إن المحتال يموت قبل أجله.

قال دمنة: قد عرفت صدق مقالتك.

وقد قالت العلماء: لا تجزع من العذاب إذا وقفت منك على خطيئة؛ ولأن تعذب في الدنيا بجرمك خيرٌ من أن تعذب في الآخرة بجهنم مع الإثم.

قال كليلة: قد فهمت كلامك؛ ولكن ذنبك عظيمٌ، وعقاب الأسد شديدٌ أليمٌ.

وكان بقربهما في السجن فهدٌ معتقلٌ يسمع كلامهما، ولا يريانه؛ فعرف معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله، وما كان منه؛ وأن دمنة مقرٌّ بسوء عمله، وعظيم ذنبه؛ فحفظ المحاورة بينهما، وكتمها؛ ليشهد بها إن سئل عنها.

ثم إن كليلة انصرف إلى منزله، ودخلت أم الأسد حين أصبحت على الأسد؛ وقالت له: يا سيد الوحوش، حوشيت أن تنسى ما قلت بالأمس؛ وأنك أمرت به لوقته؛ وأرضيت به رب العباد.

وقد قالت العلماء: لا ينبغي للإنسان أن يتوانى في الجد للتقوى؛ بل لا ينبغي أن يدافع عن ذنب الأثيم، فلما سمع الأسد كلام أمه أمر أن يحضر النمر، وهو صاحب القضاء.

فلما حضر قال له وللجوَّاس العادل: اجلسا في موضع الحكم، ونادياً في الجند صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا في حال دمنة، ويبحثوا في شأنه، ويفحصوا عن ذنبه، ويثبتوا قوله وعذره في كتب القضاء؛ وارفعا إليَّ ذلك يومًا فيومًا.

فلما سمع ذلك النمر والجواس العادل، وكان هذا الجواس عم الأسد، قالا: سمعًا وطاعةً لما أمر الملك.

وخرجا من عنده؛ فعملا بمقتضى ما أمرهما به؛ حتى إذا مضى من اليوم الذي جلسوا فيه ثلاث ساعات -أمر القاضي أن يؤتى بدمنة؛ فأُتِيَ به، فأوقف بين يديه، والجماعة حضور.

فلما استقر به المكان نادى سيد الجمع بأعلى صوته: أيها الجمع، إنكم قد علمتم أن سيد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خاثر النفس، كثير الهم والحزن، يرى أنه قد قتل شتربة بغير ذنب؛ وأنه أخذه بكذب دمنة ونميمته.

وهذا القاضي قد أمر أن يجلس مجلس القضاء، ويبحث عن شأن دمنة.

فمن علم منكم شيئًا في أمر دمنة من خيرٍ أو شرٍّ، فليقل ذلك، وليتكلم به على رءوس الجمع والأشهاد؛ ليكون القضاء في أمره أولى، والعجلة من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل.

فعندها قال القاضي: أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم، ولا تكتموا ما عرفتم من أمره؛ واحذروا في الستر عليه ثلاث خصالٍ: إحداهن، وهي أفضلهن: ألا تزدروا فعله، ولا تعدوه يسيرًا؛ فمن أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة؛ ومن علم من أمر هذا الكتاب الذي اتهم البريء بكذبه ونميمته شيئًا، فستر عليه فهو شريكه في الإثم والعقوبة.

والثانية: إذا اعترف المذنب بذنبه كان أسلم له، وأحرى بالملك وجنده أن يعفوا عنه، ويصفحوا.

والثالثة: ترك مراعاة أهل الذم والفجور، وقطع أسباب مواصلاتهم ومودتهم عن الخاصة والعامة؛ فمن علم من أمر هذا المحتال شيئًا فليتكلم به

على رءوس الأشهاد ممن حضر؛ ليكون ذلك حجةً عليه، وقد قيل: إنه من كتم شهادة ميتٍ ألجم بلجامٍ من نارٍ يوم القيامة؛ فليقل كل واحد منكم ما علم.

فلما سمع ذلك الجمع كلامه أمسكوا عن القول.

فقال دمنة: ما يسكتكم؟ تكلموا بما علمتم؛ واعلموا أن لكل كلمة جوابًا.

وقد قالت العلماء: من يشهد بما لم يرَ، ويقول ما لا يعلم، أصابه ما أصاب الطبيب الذي قال لما لا يعلمه: إني أعلمه.

قالت الجماعة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم، وكان ذا فطنة فيما يجري على يديه من المعالجات، فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره.

وكان لملك تلك المدينة ابنة قد زوجها لابن أخ له، فعرض لها ما يعرض للحوامل من الأوجاع.

فجيء بهذا الطبيب، فلما حضر، سأل الجارية عن وجعها وما تجد، فأخبرته، فعرف داءها ودواءها، وقال: لو كنت أبصر، لجمعت الأخلاط على معرفتي بأجناسها، ولا أثق في ذلك بأحد غيري.

وكان في المدينة رجل سفيه، فبلغه الخبر، فأتاهم وادَّعى علم الطب، وأعلمهم أنه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة، فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته، فلما دخل السفيه الخزانة، وعرضت عليه الأدوية -ولا يدري ما هي،

ولا له بها معرفة- أخذ في جملة ما أخذ منها صرة فيها سمٌّ قاتل لوقته، وخلطه في الأدوية، ولا علم له به، ولا معرفة عنده بجنسه.

فلما تمت أخلاط الأدوية، سقى الجارية منه، فماتت لوقتها.

فلما عرف الملك ذلك، دعا بالسفيه، فسقاه من ذلك الدواء، فمات من ساعته.

وإنما ضربت لكم هذا المثل؛ لتعلموا ما يدخل على القائل والعامل من الزلة بالشبه في الخروج عن الحد، فمن خرج منكم عن حده أصابه ما أصاب ذلك الجاهل، ونفسه الملومة.

وقد قالت العلماء: ربما جزى المتكلم بقوله، والكلام بين أيديكم: فانظروا لأنفسكم.

فتكلم سيد الخنازير؛ لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد، فقال: يا أهل الشرف من العلماء، اسمعوا مقالتي، وعوا بأحلامكم كلامي، فالعلماء قالوا في أن الصالحين: إنهم يعرفون بسيماهم، وأنتم معاشر ذوي الاقتدار، بحسن صنع الله لكم، وتمام نعمته لديكم، تعرفون الصالحين بسيماهم وصورهم، وتخبرون بالشيء الصغير، وهاهنا أشياء كثيرة تدل على هذا الشقي دمنة، وتخبر عن شره، فاطلبوها على ظاهر جسمه؛ لتستيقنوا وتسكنوا إلى ذلك.

قال القاضي لسيد الخنازير: قد علمت، وعلم الجماعة الحاضرون، أنك عارف بما في الصور من علامات السوء، ففسر لنا ما تقول، وأطلعنا على ما ترى في صورة هذا الشقي.

فأخذ سيد الخنازير يذم دمنة، وقال: إن العلماء قد كتبوا وأخبروا: أنه من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهي لا تزال تختلج، وكان أنفه مائلًا إلى جنبه الأيمن -فهو شقي خبيث.

قال له دمنة: شأنك عجب، أيها القذر، ذو العلامات الفاضحة القبيحة، ثم العجب من جراءتك على طعام الملك، وقيامك بين يديه، مع ما بجسمك من القذر والقبح، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك، أفتتكلم في النقي الجسم الذي لا عيب فيه؟ ولست أنا وحدي أطلع على عيبك، لكن جميع من حضر قد عرف ذلك.

وقد كان يحجزني عن إظهاره ما بيني وبينك من الصداقة.

فأما إذا قد كذبت عليَّ وبهتني في وجهي، وقمت بعداوتي، فقلت ما قلت فيَّ بغير علم على رءوس الحاضرين، فإني أقتصر على إظهار ما أعرف من عيوبك، وتعرف الجماعة، وحق على من عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك على طعامه، فلو كُلِّفت أن تعمل الزراعة لكنت جديرًا بالخذلان فيها، فالأحرى بك ألَّا تدنو إلى عمل من الأعمال، وألَّا تكون دبَّاغًا ولا حجَّامًا لعاميٍّ فضلًا عن خاصٍّ خدمة الملك.

قال سيد الخنازير: أتقول لي هذه المقالة، وتلقاني بهذا الملقى؟ قال دمنة: نعم، وحقًّا قلت فيك، وإياك أعني، أيها الأعرج المكسور الأفدع الرِّجلِ، المنفوخ البدن، الأفلح الشفتين، السيئ المنظر والمخبر.

فلما قال ذلك دمنة تغيَّر وجه سيد الخنازير واستعبر واستحى، وتلجلج لسانه، واستكان وفتر نشاطه.

فقال دمنة، حين رأى انكساره وبكاءه: إنما ينبغي أن يطول بكاؤك، إذا اطلع الملك على قذرك وعيوبك، فعزلك عن طعامه، وحال بينك وبين خدمته، وأبعدك عن حضرته.

ثم إن شغبرًا قد جربه فوجد فيه أمانة وصدقًا، فرتبه في خدمته، وأمره أن يحفظ ما يجري بينهم، ويطلعه على ذلك.

فقام الشغبر فدخل على الأسد فحدثه بالحديث كله على جليته.

فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله، وأمر ألا يدخلَ عليه، ولا يرى وجهه، وأمر بدمنة أن يسجن، وقد مضى من النهار أكثره، ورجع كل واحد منهم إلى منزله.

ثم إن شغبرًا يقال له: روزبة، كان بينه وبين كليلة إخاء ومودة، وكان عند الأسد وجيهًا، وعليه كريمًا، واتفق أن كليلة أخذه الوجد إشفاقًا وحذرًا على نفسه وأخيه، فمرض ومات، فانطلق هذا الشغبر إلى دمنة، فأخبره بموت كليلة فبكى وحزن، وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الصفي؟! ولكن أحمد الله تعالى حيث لم يمت كليلة حتى أبقى لي من ذوي قرابتي أخًا مثلك؛ فإني قد وثقت بنعمة الله تعالى وإحسانه إليَّ فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك لي، وقد علمت أنك رجائي وركني فيما أنا فيه، فأريد من إنعامك أن تنطلق إلى مكان كذا، فتنظر إلى ما جمعته أنا وأخي بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى، فتأتيني به، ففعل الشغبر ما أمره به دمنة.

فلما وضع المال بين يديه أعطاه شطره، وقال له: إنك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك، فتفرغ لشأني، واصرف اهتمامك إليَّ،

واسمع ما أذكر به عند الأسد، إذا رفع إليه ما يجري بيني وبين الخصوم، وما يبدو من أم الأسد في حقي، وما ترى من متابعة الأسد لها، ومخالفته إياها في أمري، وأحفظ ذلك كله.

فأخذ الشغبر ما أعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد.

فانطلق إلى منزله فوضع المال فيه.

ثم إن الأسد بكَّر من الغد فجلس، حتى إذا مضى من النهار ساعتان، استأذن عليه أصحابه فأذن لهم، فدخلوا عليه، ووضعوا الكتاب بين يديه.

فلما عرف قولهم وقول دمنة دعا أمه فقرأ عليها ذلك.

فلما سمعت ما في الكتاب نادت بأعلى صوتها: إن أنا أغلظت في القول فلا تلمني؛ فإنك لست تعرف ضرك من نفعك.

أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه؛ لأنه كلام هذا المجرم المسيء إلينا، الغادر بذمتنا؟ ثم إنها خرجت مغضبة، وذلك بعين الشغبر الذي أخاه دمنة ويسمعه.

فخرج في أثرها مسرعًا، حتى أتى دمنة، فحدثه بالحديث.

فبينما هو عنده إذ جاء رسول انطلق بدمنة إلى الجمع عند القاضي.

فلما مثل بين يدي القاضي استفتح سيد المجلس، فقال: يا دمنة قد أنبأني خبرك الأمين الصادق، وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا؛ لأن العلماء قالوا: إن الله تعالى جعل الدنيا سببًا ومصداقًا للآخرة؛ لأنها دار الرسل والأنبياء الدالين على الخير الهادين إلى الجنة الداعين إلى معرفة الله تعالى.

وقد ثبت شأنك عندنا وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله إلا أن سيدنا أمرنا بالعودة في أمرك والفحص عن شأنك وإن كان عندنا ظاهرًا بيّنًا.

قال دمنة: أراك أيها القاضي لم تتعود العدل في القضاء، وليس في عدل الملك دفع المظلومين ومن لا ذنب له إلى قاضٍ غير عادل، بل المخاصمة عنهم والذود.

فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم؟ وتعجل ذلك موافقة لهواك، ولم تمض بعدُ ذلك ثلاثة أيام.

ولكن صدق الذي قال: إن الذي تعود عمل البر هين عليه عمله وإن أضرَّ به.

قال القاضي: إنا نجد في كتب الأولين: أن القاضي ينبغي له أن يعرف عمل المحسن والمسيء؛ ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فإذا ذهب إلى هذا ازداد المحسنون حرصًا على الإحسان والمسيئون اجتنابًا للذنوب.

والرأي لك يا دمنة أن تنظر الذي وقعت فيه وتعترف بذنبك وتقر به وتتوب.

فأجابه دمنة: إن صالحي القضاة لا يقطعون بالظن، ولا يعملون به، لا في الخاصة، ولا في العامة؛ لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

وأنتم إن ظننتم أني مجرم فيما فعلت فإني أعلم بنفسي منكم، وعلمي بنفسي يقين لاشك فيه، وعلمكم بي غاية الشك، وإنما قبح أمري عندكم أني سعيت بغيري، فما عذري عندكم إذا سعيت بنفسي كاذبًا عليها فأسلمتها للقتل

والعطب على معرفة مني ببراءتي وسلامي مما قرفت به؟ ونفسي لأعظم الأنفس على حرمة وأوجبها حقًّا.

فلو فعلت هذا بأقصاكم وأدناكم، لما وسعني في ديني، ولا حسن بي في مروءتي، ولا حق لي أن أفعله فكيف أفعله بنفسي؟ فاكفف أيها القاضي عن هذه المقالة؛ فإنها إن كانت منك نصيحة فقد أخطأت موضعها، وإن كانت خديعة فإن أقبح الخداع ما نظرته وعرفت أنه من غير أهله مع أن الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحي القضاة ولا تقاة الولاة.

واعلم أن قولك مما يتخذه الجهال والأشرار سُنَّة يقتدون بها؛ لأن أموز القضاة يأخذ بصوابها أهل الصواب، وبخطئها أهل الخطأ والباطل والقليلو الورع، وأنا خائف عليك أيها القاضي من مقالتك هذه أعظم الرزايا والبلايا، وليس من البلاء و المصيبة أنك لم تزل في نفس الملك والجند والخاصة والعامة فاضلًا في رأيك، مقنعًا في عدلك، مرضيًا في حكمك وعفافك وفضلك، وإنما البلاء كيف أنسيت ذلك في أمري؟! فلما سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة نهض فرفعه إلى الأسد على وجهه، فنظر في الأسد ثم دعا أمه فعرضه عليها.

فقالت حين تدبرت كلام دمنة للأسد: لقد صار اهتمامي بما أتخوف من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه حتى يقتلك أو يفسد عليك أمرك أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك في الغش والسعاية حتى قتلت صديقك -بغير ذنب- فوقع قولها في نفسه.

فقال لها: أخبريني عن الذي أخبرك عن دمنة بما أخبرك، فيكون حجة لي في قتل دمنة.

فقالت: إني لأكره أن أفشي سرًّا استكتمنيه، فلا يهنئني سروري بقتل دمنة إذا تذكرت أني استظهرت عليه بركوب ما نهت عنه العلماء من كشف السر، ولكني أطالب الذي استودعنيه أن يجعلني في حل من ذكره لك ويقوم هو بعلمه وما سمع منه.

ثم انصرفت وأرسلت إلى النمر وذكرت له ما يحق عليه من حسن معاونته الأسد على الحق، وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصر المظلومين، وتثبيت حجة الحق في الحياة والممات؛ فإنه قد قالت العلماء: من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة.

فلم تزل به حتى قام فدخل على الأسد فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة.

فلما شهد النمر بذلك أرسل الفهد المحبوس الذي سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد، فقال: إن عندي شهادة، فأخرجوه.

فشهد على دمنة بما سمع من إقراره.

فقال لهما الأسد: ما منعكما أن تقوما بشهادتكما وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة، فقال كل واحد منهما: قد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكمًا، فكرهنا التعرض لغير ما يمضي به الحكم، حتى إذا شهد أحدنا قام الآخر بشهادته فقبل الأشد قولهما.

وأمر بدمنة أن يقتل في حبسه، فقُتِل أشنع قتلة.

فمن نظر في هذا فليعلم أن من أراد منفعة نفسه بضر غيره بالخلابة والمكر -فإنه سيجري على خلابته ومكره.

باب الحمامة المطوقة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذب، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك.

فحدثني، إن رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض؟ قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئًا فالإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه.

ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال بيدبا: زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين، عند مدينة داهر، مكان كثير الصيد، ينتابه الصيادون؛ وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق، فيها وكر غراب، فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره إذ بصر بصياد قبيح المنظر، سيئ الخلق، على عاتقه شبكة، وفي يده عصًا مقبلًا نحو الشجرة، فذعر منه الغراب؛ وقال: لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان: إما حيني وإما حين غيري.

فلأثبتن مكاني حتى أنظر ماذا يضنع.

ثم إن الصياد نصب شبكته، ونثر عليها الحب، وكمن قريبا منها، فلم يلبث إلا قليلًا، حتى مرت به حمامة يقال لها: المطوقة، وكانت سيدة الحمام

ومعها حمام كثير؛ فعميت هي وصواحبها عن الشَّرَك، فوقعن على الحبِّ يلتقطنه فعلقن في الشبكة كلهن؛ وأقبل الصياد فرحًا مسرورًا.

فجعلت كل حمامة تضطرب في حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها.

قالت المطوقة: لا تخاذلنا في المعالجة، ولا تكن نفس إحداكن أهم إليها من نفس صاحبتها؛ ولكن نتعاون جميعًا فنقلع الشبكة فينجو بعضنا ببعض؛ فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن، وعلون في الجو؛ ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظن أنهن لا يجاوزن إلا قريبًا ويقعن.

فقال الغراب: لأتبعهن وأنظر ما يكون منهن.

فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن.

فقالت للحمام: هذا الصياد مجد في طلبكن، فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا ولم يزل يتبعنا وإن نحن توجهنا إلى العمران خفي عليه أمرنا، وانصرف.

وبمكان كذا جرذٌ هو لي أخ؛ فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك، ففعلن ذلك، وأيس الصياد منهن وانصرف، وتبعهن الغراب.

فلما انتهت الحمامة المطوقة إلى الجرذ، أمرت الحمام أن يسقطن، فوقعن؛ وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف فنادته المطوقة باسمه، وكان اسمه: زيرك، فأجابها الجرذ من جحره: من أنت؟ قالت: أنا خليلتك المطوقة.

فأقبل إليها الجرذ يسعى، فقال لها: ما أوقعك في هذه الورطة؟ قالت له: ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا هو مقدَّرٌ على من تصيبه المقادير، وهي

التي أوقعتني في هذه الورطة؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى مني وأعظم أمرًا؛ وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضي ذلك عليهما.

ثم إن الجرذ أخذ في قرض العقد الذي فيه المطوقة.

فقالت له المطوقة: ابدأ بقطع عقد سائر الحمام، وبعد ذلك أقبل على عقدي؛ وأعادت ذلك عليه مرارًا، وهو لا يلتفت إلى قولها، فلما أكثرت عليه القول وكررت، قال لها: لقد كررت القول عليَّ، كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا لك عليها شفقة، ولا ترعين لها حقًّا.

قالت: إني أخاف، إن أنت بدأت بقطع عقدي أن تمل وتكسل عن قطع ما بقي؛ وعرفت أنك إن بدأت بهن قبلي، وكنت أنا الأخيرة لم ترضَ وإن أدركك الفتور أن أبقى في الشرك، قال الجرذ: هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك.

ثم إن الجرذ أخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها، فانطلقت المطوقة وحمامها معها.

فلما رأى الغراب صنع الجرذ، رغب في مصادقته، فجاء وناداه باسمه، فأخرج الجرذ رأسه، فقال له: ما حاجتك؟ قال: إني أريد مصادقتك.

قال الجرذ: ليس بيني وبينك تواصل، وإنما العاقل ينبغي له أن يلتمس ما يجد إليه سبيلًا، ويترك التماس ما ليس إليه سبيلٌ، فإنما أنت الآكل، وأنا طعام لك.

قال الغراب: إن أكلي إياك، وإن كنت لي طعامًا، مما لا يغني عني شيئًا؛ وإن مودتك آنس لي مما ذكرت ولست بحقيق، إذا جئت أطلب مودتك، أن تردني خائبًا.

فإنه قد ظهر لي منك من حسن الخلق ما رغبني فيك، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك؛ فإن العاقل لا يخفي فضله، وإن هو أخفاه؛ كالمسك الذي يكتم، ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح.

قال الجرذ: إن أشد العداوة عداوة الجوهر، وهي عداوتان: منها ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد.

فإنه ربما قتل الأسد الفيل، أو الفيل الأسد، ومنها ما قوَّته من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنور وبيني وبينك؛ فإن العداوة التي بيننا ليست تضرك، وإنما ضررها عائد عليَّ؛ فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صب عليها، وإنما مصاحب العدوِّ ومصالحه كصاحب الحية يحملها في كمه، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب.

قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك، وتعرف صدق مقالتي ولا تصعب عليَّ الأمر بقولك: ليس إلى التواصل بيننا سبيل؛ فإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيءٌ انقطاعها.

ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب: بطيء الانكسار، سريع الإعادة، هيِّن الإصلاح، إن أصابه ثلم أو كسر، والمودة بين الأشرار سريعٌ انقطاعها، بطيء اتصالها.

ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ولا وصل له أبدًا.

والكريم يودُّ الكريم، واللئيم لا يودُّ أحدًا إلا عن رغبة أو رهبة.

وأنا إلى ودِّك ومعروفك محتاج؛ لأنك كريم وأنا ملازم لبابك غير ذائق طعامًا حتى تؤاخيني.

قال الجرذ: قد قبلت إخاءك؛ فإني لم أرد أحدًا عن حاجة قطُّ، وإنما بدأت بها بدأتك به إرادة التوثق لنفسي؛ فإن أنت غدرت بي لم تقل: إني وجدت الجرذ سريع الانخداع.

ثم خرج من جحره، فوقف عند الباب.

فقال له الغراب: ما يمنعك من الخروج إليَّ، والاستئناس بي؟ فهل في نفسك بعد ذا ، مني ريبة؟ قال الجرذ: إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين، ويتواصلون عليهما، وهما: ذات النفس، وذات اليد.

فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء، وأما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين ا تمس بعضهم الانتفاع ببعض.

ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فإنما مثله فيما يبذل ويعطي كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير، وإنما يريد نفع نفسه.

فتعاطي ذات النفس أفضل من تعاطي ذات اليد.

وإني وثقت منك بذات نفسك، ومنحتك من نفسي مثل ذلك.

وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظنٍّ بك، ولكن قد عرفت أن لك أصحابًا جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم فيَّ رأيك.

قال الغراب: إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا، ولعدو صديقه عدوًّا؛ وليس لي بصاحب، ولا صديق من لا يكون لك محبًّا؛ وإنه يهون عن قطيعة من كان كذلك من جوهري.

ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب فتصافحا وتصافيا، وأنس كل واحد منهما بصاحبه؛ حتى إذا مضت لهما أيام قال الغراب للجرذ: إن جِحرك قريب من طريق الناس، وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجرٍ؛ ولي مكان في عزلة، ولي فيه صديقٌ من السلاحف وهو مخصب من السمك، ونحن واجدون هناك ما نأكل فأريد أن أنطلق بك إلى هناك لنعيش آمنين.

قال الجرذ: إن لي أخبارًا وقصصًا سأقصها عليك إذا انتهينا حيث تريد فافعل ما تشاء، فأخذ الغراب بذَنَب الجرذ وطار به حتى بلغ به حيث أراد.

فلما دنا من العين التي فيها السلحفاة بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ فذعرت منه ولم تعلم أنه صاحبها، فناداها فخرجت إليه، وسألته: من أين أقبلت؟ فأخبرها بقصته حين تبع الحمام، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها.

فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ عجبت من عقله ووفائه، ورحبت به، وقالت له: ما ساقك إلى هذه الأرض؟ قال الغراب للجرذ: اقصص عليَّ الأخبار التي زعمت أنك تحدثني بها، فأخبرني بها مع جواب ما سألت السلحفاة: فإنها عندك بمنزلتي.

فبدأ الجرذ وقال: كان منزلي أول أمري بمدينة ماروت في بيت رجل ناسك، وكان خاليًا من الأهل والعيال، وكان يؤتى في كل يوم بسلة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقي، وكنت أرصد الناسك، حتى يخرج وأثب إلى السلة، فلا أدع فيها طعامًا إلا أكلته، وأرمي به إلى الجرذان.

فجهد الناسك مرارًا أن يعلق السلة مكانًا لا أناله فلم يقدر على ذلك، حتى نزل به ذات ليلة ضيف فأكلا جميعًا، ثم أخذا في الحديث فقال الناسك للضيف: من أي أرض أقبلت؟ وأين تريد الآن؟ وكان الرجل قد جاب الآفاق، ورأى عجائب فأنشأ يحدث الناسك عمّا وطئ من البلاد، ورأى من العجائب، وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه لينفّرني عن السلة، فغضب الضيف، وقال: أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثي! فما حملك على أن سألتني؟ فاعتذر إليه الناسك، وقال: إنما أصفق بيدي لأنفّر جرذًا قد تحيرت في أمره، ولست أضع في البيت شيئًا إلا أكله، فقال الضيف: جرذٌ واحد يفعل ذلك، أم جرذان كثيرة؟ فقال الناسك: فما أستطيع له حيلة.

قال الضيف: لقد ذكرتني قول الذي قال: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسمًا مقشورًا بغير مقشور! قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

قال الضيف: نزلت مرة على رجل بمكان كذا، فتعشينا، ثم فرش لي.

وانقلب الرجل على فراشه، فسمعته يقول في آخر الليل لامرأته: إني أريد أن أدعو غدًا رهطًا ليأكلوا عندنا، فاصنعي لهم طعامًا.

فقالت المرأة: كيف تدعو الناس إلى طعامك، وليس في بيتك فضل عن عيالك؟ وأنت رجل لا تبقي شيئًا ولا تدخره.

قال الرجل: لا تندمي على شيءٍ أطعمناه وأنفقناه؛ فإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب.

قالت المرأة: وكيف كان ذلك؟ قال الرجل: زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانصٌ، ومعه قوسه ونشابه فلم يجاوز غير بعيد، حتى رمى ظبيًا، فحمله ورجع طالبًا منزله، فاعترضه خنزير بريٌّ، فرماه بنشابةٍ نفذت فيه، فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس، ووقعا ميتين، فأتى عليهم ذئب، فقال: هذا الرجل والظبي والخنزير يكفيني أكلهم مدةً، ولكن أبدأ بهذا الوتر فآكله، فيكون قوت يومي، فعالج الوتر حتى قطعه فلما انقطع طارت سية القوس فضربت حلقه فمات.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمي أن الجمع والادخار وخيم العاقبة.

فقالت المرأة: نعم ما قلت! وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفي ستة نفر أو سبعة، فأنا غاديةٌ على اصطناع الطعام، فادع من أحببت.

وأخذت المرأة حين أصبحت سمسمًا فقشرته، وبسطته في الشمس ليجفَّ، وقالت لغلام لهم: اطرد عنه الطير والكلاب، وتفرغت المرأة لصنعها؛ وتغافل الغلام عن السمسم؛ فجاء كلبٌ، فعاث فيه؛ فاستقذرته المرأة، وكرهت أن تصنع منه طعامًا ما؛ فذهبت به إلى السوق، فأخذت به مقايضة سمسمًا غير مقشور: مثلًا بمثلٍ، وأنا واقفٌ في السوق؛ فقال رجلٌ: لأمرٍ ما باعت هذه المرأة سمسمًا مقشورًا بغير مقشورٍ.

وكذلك قولي في هذا الجرذ الذي ذكرت أنه على غير علةٍ ما يقدر على ما شكوت منه.

فالتمس لي فأسًا لعلي أحتفر جحره فأطلع على بعض شأنه.

فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسًا، فأتى بها الضيف، وأنا حينئذٍ في غير جحري أسمع كلامهما، وفي جحري كيس فيه مائة دينار، لا أدري من وضعها، فاحتفر الضيف حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها، وقال الناسك: ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب إلا بهذه الدنانير؛ فإن المال جعل له قوة وزيادة في الرأي والتمكن.

وسترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب.

فلما كان من الغد اجتمع الجرذان التي كانت معي، فقالت: قد أصابنا الجوع، وأنت رجاؤنا فانطلقت ومعي الجرذان إلى المكان الذي كنت أثب منه إلى السلة فحاولت ذلك مرارًا: فلم أقدر عليه فاستبان للجرذان نقص حالي فسمعتهن يقلن: انصرفن عنه، ولا تطمعن فيما عنده؛ فإنا نرى له حالًا لا نحسبه إلا قد احتاج معها إلى من يعوله.

فتركنني، ولحقن بأعدائي وجفونني، وأخذن في غيبتي عند من يعاديني ويحسدني.

فقلت في نفسي: ما الإخوان، ولا الأعوان، ولا الأصدقاء إلا بالمال، ووجدت من لا مال له، إذا أراد أمرًا قعد به العدم عمّا يريده، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء: لا يمر إلى نهر ولا يجري إلى مكان، فتشربه أرضه.

ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا مال له لا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة له؛ لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه

وإخوانه؛ فإن الشجرة النابتة في السباخ، المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس.

ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالب إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة.

ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا، وأساء به الظن من كان يظن فيه حسنًا؛ فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعًا.

وليس من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذمٌّ، فإن كان شجاعًا قيل: أهوج، وإن كان جوادًا سُمِّي مبذرًا، وإن كان حليمًا سُمِّي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سُمِّي بليدًا.

فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام؛ فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى، فيخرج منه سمًّا فيبتلعه كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللَّئيم.

وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناس، فجعل الناسك نصيبه في خريطة عند رأسه ولما جنَّ الليل، فطمعت أن أصيب منها شيئًا فأرده إلى جحري، ورجوت أن يزيد ذلك في قوتي، ويراجعني بسببه بعض أصدقائي.

فانطلقت إلى الناسك وهو نائم، حتى انتهيت عند رأسه، ووجدت الضيف يقظان، وبيده قضيب، فضربني على رأسي ضربة موجعة، فسعيت إلى جحري.

فلما سكن عني الألم، هيجني الحرص والشره، فخرجت طمعًا كطمعي الأول، وإذا الضيف يرصدني، فضربني ضربة أسالت مني الدم، فتقلبت ظهرًا لبطن إلى جحري، فخررت مغشيًا عليَّ، فأصابني من الوجع ما بغَّض إليَّ المال.

ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشره، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب، ووجدت تجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون عليَّ من بسط اليد إلى السَّخيِّ بالمال، ولم أر كالرضا شيئًا، فصار أمري إلى أن رضيت وقنعت، وانتقلت من بيت الناسك إلى البرية، وكان لي صديق من الحمام، فسيقت إليَّ بصداقته صداقة.

ثم ذكر لي الغراب ما بينك وبينه من المودة، وأخبرني أنه يريد إتيانك، فأحببت أن آتيك معه، فكرهت الوحدة؛ فإنه لا شيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غمَّ فيها يعدل البعد عنهم.

وجربت: فعلمت أنه لا ينبغي للعاقل أن يلتمس من الدنيا غير الكفاف الذي يدفع به الأذى عن نفسه: وهو اليسير من المطعم والمشرب، إذا اشتمل على صحة البدن ورفاهة البال.

ولو أن رجلًا وهبت له الدنيا بما فيها -لم يكن ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذي يدفع به عن نفسه الحاجة: فأقبلت مع الغراب إليك على هذا الرأي، وأنا لك أخ، فلتكن منزلتي عندك كذلك.

فلما فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيقٍ عذبٍ، وقالت: قد سمعت كلامك، وما أحسن ما تحدثت به! إلا أني رأيتك تذكر بقايا أمورٍ هي في نفسك.

واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن يتداوَ به -لم يغن به شيئًا، ولم يجد لدائه راحة ولا خفةً.

فاستعمل رأيك، ولا تحزن لقلة المال؛ فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال: كالأسد الذي يهاب، وإن كان رابضًا، والغني الذي لا مروءة له يهان وإن كان كثير المال: كالكلب لا يحفل به، وإن طُوِّق وخلخل بالذهب.

فلا تكبرنَّ عليك غربتك؛ فإن العاقل لا غربة له: كالأسد الذي لا ينقلب إلا ومعه قوته.

فلتحسن تعاهدك لنفسك؛ فإنك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره.

وإنما جُعِلَ الفضل للحازم البصير بالأمور، وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه.

وقد قيل في أشياء ليس لها ثباتٌ ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخلة الأشرار، والبناء على غير أساس، والمال الكثير؛ فالعاقل لا يحزن لقلته، وإنما مال العاقل عقله، وما قدَّم من صالح، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل ولا يؤاخذ بشيءٍ لم يعمله، وهو خليقٌ ألا يغفل عن أمر آخرته؛ فإن الموت لا يأتي إلا بغتةً، ليس له وقت معين.

وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم.

ولكن رأيت أن أقضي مالك من حق قبلنا؛ لأنك أخونا، وما عندنا من النصح مبذول لك.

فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ وردها عليه وملاطفتها إياه فرح بذلك، وقال: لقد سررتني وأنعمت عليَّ، وأنت جديرة أن تسرِّي نفسك بمثل ما سررتني به.

وإن أولى أهل الدنيا بشدَّة السرور من لا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد؛ فإن الكريم إذا عثر لا يأخذ بيده إلا الكرام: كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلا الفيلة.

فبينما الغراب في كلامه، إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى، فذعرت منه السلحفاة، فغاصت في الماء، وخرج الجرذ إلى جحره، وطار الغراب فوقع على شجرة.

ثم إن الغراب حلَّق في السماء؛ لينظر هل للظبي طالب؟ فنظر فلم ير شيئًا؛ فنادى الجرذ والسلحفاة، وخرجا، فقالت السلحفاة للظبي، حين رأته ينظر إلى الماء: اشرب إن كان بك عطش، ولا تخف؛ فإنه لا خوف عليك.

فدنا الظبي فرحبت به السلحفاة وحيَّته، وقالت له: من أين أقبلت؟ قال: كنت أسنح بهذه الصحارى فلم تزل الأساورة تطردني من مكان إلى مكان حتى رأيت اليوم شبحًا.

فخفت أن يكون قانصًا قالت: لا تخف؛ فإنا لم نرَ هاهنا قانصًا قط، ونحن نبذل لك ودَّنا ومكاننا، والماء والمرعى كثيران عندنا فارغب في صحبتنا.

فأقام الظبي معهم، وكان لهم عريش يجتمعون فيه، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار.

فبينما الغراب، والجرذ، والسلحفاة ذات يوم في العريش غاب الظبي فتوقعوه ساعة فلم يأت.

فلما أبطأ أشفقوا أن يكون قد أصابه عنتٌ، فقال الجرذ، والسلحفاة للغراب: انظر هل ترى مما يلينا شيئًا؟ فحلق الغراب في السماء، فنظر فإذا الظبي في الحبائل مقتنَصًا فانقض مسرعًا، فأخبرهما بذلك، فقالت السلحفاة، والغراب للجرذ: هذا أمر لا يرجى فيه غيرك: نأغث أخاك، فسعى الجرذ مسرعًا، فأتى الظبي، فقال له: كيف وقعت في هذه الورطة وأنتِ من الأكياس؟ قال الظبي: هل يغني الكيس مع المقادير شيئًا؟ فبينما هما في الحديث إذ وافتهما السلحفاة فقال لها الظبي: ما أصبت بمجيئك إلينا؛ فإن القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجرذ الحبائل استبقه عدوًا، وللجرذ أحجارٌ كثيرة، والغراب يطير وأنت ثقيلة؛ لا سعي لك، ولا حركة، وأخاف عليك القانص.

فقالت: لا عيش مع فراق الأحبة، وإذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤاده، وحرم سروره، وغشي بصره، فلم ينتهِ كلامهما حتى وافى القانص، ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك، فنجا الظبي بنفسه، وطار الغراب محلقًا، ودخل الجرذ بعض الأحجار ولم يبق غير السلحفاة، ودنا الصياد فوجد حبالته مقطَّعة، فنظر يمينًا وشمالًا فلم يجد غير السلحفاة تدب، فأخذها وربطها، فلم يلبث الغراب والجرذ والظبي أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة فاشتد حزنهم، وقال الجرذ: ما أرانا نجاوز عقبة من البلاء إلا صرنا في أشد منها.

ولقد صدق الذي قال: لا يزال الإنسان مستمرًّا في إقباله ما لم يعثر، فإذا عثر لجَّ به العثار وإن مشى في جدد الأرض.

وحذري على السلحفاة خير الأصدقاء التي خلتها ليست للمجازاة، ولا لالتماس مكافأة، ولكنها خلة الكرم والشرف، خلة هي أفضل من خلة الوالد لولده، خلة لا يزيلها إلا الموت.

ويحٌ لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب، ولا يدوم له شيء، ولا يلبث معه أمر: كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع، ولا للآفل منها أفولٌ، لكن لا يزال للطالع منها آفلًا، والآفل طالعًا، وكما تكون آلام الكلوم وانتقاض الجراحات، كذلك من قرحت كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم.

فقال الظبي، والغراب للجرذ: إنَّ حذرنا وحذرك وكلامك، وإن كان بليغًا، كلٌّ منها لا يغني عن السلحفاة شيئًا، وإنه كما يقال: إنما يختبر الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة، كذلك يختبر الإخوان عند النوائب.

قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب أيها الظبي فتقع بمنظر من القانص: كأنك جريح، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك، وأسعى أنا فأكون قريبًا من القانص، مراقبًا له، فعلَّه أن يرمي ما معه من الآلة، ويضع السلحفاة، ويقصدك طامعًا فيك، راجيًا تحصيلك.

فإذا دنا منك ففر عنه رويدًا بحيث لا ينقطع طمعه منك، ومكنه من أخذك مرة بعد مرة، حتى يبعد عنا، وانْحُ منه هذا النحو ما استطعت؛ فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة، وأنجو بها.

ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ، وتبعهما القانص، فاستجره الظبي، حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة، والجرذ مقبلٌ على قطع الحبائل، حتى قطعها، ونجا بالسلحفاة، وعاد القانص مجهودًا لاغبًا فوجد حبالته مقطعة.

ففكر في أمره مع الظبي المتظالع، فظن أنه خولط في عقله، وفكر في أمر الظبي والغراب الذي كأنه يأكل منه وقرض حبالته فاستوحش من الأرض وقال: هذه أرض جنٍّ أو سحرة.

فرجع موليًا لا يلتكس شيئًا، ولا يلتفت إليه.

واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه.

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض؛ فالإنسان الذي قد أعطي العقل والفهم.

وألهم الخير والشر، ومنح التميز والمعرفة، أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد.

فهذا مثل إخوان الصفاء وأتلافهم في الصحبة.

باب البوم والغربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم، فاضرب لي مثل العدوِّ الذي لا ينبغي أن يغترَّ به، وإن أظهر تضرعًا وملقًا، قال الفيلسوف: من اغتر بالعدو الذي لم يزل عدوًّا، أصابه ما أصاب البوم من الغربان.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان في جبل في الجبال شجرة من شجر الدوح، فيها وكر ألف غراب، وعليهن والٍ من أنفسهن، وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بوم، وعليهن والٍ منهن.

فخرج ملك البوم لبعض غدواته وروحاته، وفي نفسه العداوة لملك الغربان، وفي نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم، فأغار ملك البوم في أصحابه على الغربان في أوكارها، فقتل وسبى منها خلقًا كثيرًا، وكانت الغارة ليلًا، فلما أصبحت الغربان اجتمعت إلى ملكها، فقلن له: قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم، وما منَّا إلا أصبح قتيلًا، أو جريحًا، أو مكسور الجناح، أو منتوف الريش، أو مقطوف الذنب، وأشد مما أصابنا ضرًّا علينا جراءتهن علينا، وعلمهن بمكاننا، وهنَّ عائدات إلينا غير منقطعات عنَّا؛ لعلمهنَّ بمكاننا: فإنما نحن لك، ولك الرأي، أيها الملك، فانظر لنا ولنفسك، وكان في الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأي، يسند إليهنَّ في الأمور، ويلقى عليهن أزمَّة الأحوال.

وكان الملك كثيرًا ما يشاورهن في الأمور، ويأخذ آراءهن في الحوادث والنوازل.

فقال الملك للأول من الخمسة: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال: رأيي قد سبقتنا إليه العلماء، وذلك أنهم قالوا: ليس للعدو الحنق إلا الهرب منه.

قال الملك للثاني: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال: رأي ما رأى هذا من الهرب.

قال الملك: لا أرى لكما ذلك رأيًا، أن نرحل عن أوطاننا وتخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا منه، ولا ينبغي لنا ذلك، ولكن نجمع أمرنا ونستعد لعدونا، ونذكي نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا، ونحترس من الغرة إذا أقبل إلينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالًا غير مراجعين فيه، ولا مقصرين عنه وتلقى أطرافنا أطراف العدو، ونتحرز بحصوننا وندافع عدونًا: بالأناة مرة، وبالجلاد أخرى؛ حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا، وقد ثنينا عدونا عنًّا.

ثم قال الملك للثالث: ما رأيك أنت؟ قال: ما أرى ما قالا رأيًا.

ولكن نبث العيون ونبعث الجواسيس ونرسل الطلائع بيننا وبين عدونا، فنعلم أيريد صلحنا، أم يريد حربنا، أم يريد الفدية؟ فإن رأينا أمره أمر طامع في مال، لم نكره الصلح على خراجٍ نؤديه إليه كل سنة، ندفع به عن أنفسنا ونطمئن في أوطاننا؛ فإن من آراء الملوك إذا اشتدت شوكة عدوهم، فخافوه على أنفسهم وبلاذهم، أن يجعلوا الأموال جنة البلاد، والملك، والرعية.

قال الملك للرابع: فما رأيك في هذا الصلح؟ قال لا أراه رأيًا، بل أن نفارق أوطاننا، ونصبر على الغربة، وشدة المعيشة خيرٌ من أن نضيع أحسابنا ونخضع

للعدو الذي نحن أشرف منه مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منًّا إلا بالشَّطط.

ويقال في الأمثال: قارب عدوك بعض المقاربة؛ لتنال حاجتك.

ولا تقاربه كل المقاربة فيتجرئ عليك، ويضعف جندك وتذلَّ نفسك.

ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس: إذا أملتها قليلًا زاد ظلها، وإذا جاوزت بها الحد في إمالتها نقص الظلُّ.

وليس عدونا راضيًا منًّا بالدون في المقاربة، فالرأي لنا ولك المحاربة.

قال الملك للخامس: ما تقول أنت؟ وماذا ترى: القتال، أم الصلح، أم الجلاء عن الوطن؟ قال: أما القتال فلا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه، وقد يقال: إنه من لا يعرف نفسه وعدوه، وقاتل من لا يقوى عليه -حمل نفسه على حتفها مع أن العاقل لا يستصغر عدوًّا؛ فإن من استصغر عدوه اغتر به، ومن اغتر بعدوه لم يسلم منه.

وأنا للبوم شديد الهيبة وإن أضربن عن قتالنا، وقد كنت أهابها قبل ذلك، فإن الحازم لا يأمن عدوه على كل حال فإن كان بعيدًا لم يأمن سطوته، وإن كان مكثبًا لم يأمن من وثبته، وإن كان وحيدًا لم يأمن من مكره.

وأحزم الأقوام وأكيسهم من كره القتال لجل النفقة فيه؛ فإن ما دون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل، والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان.

فلا يكونن القتال للبوم من رأيك، أيها الملك: فإن من قاتل من لا يقوى عليه فقد غرر بنفسه.

فإذا كان الملك محصنًا للأسرار، متخيرًا للوزراء، مهيبًا في أعين الناس، بعيدًا من أن يقدر عليه، كان خليقًا ألا يسلب صحيح ما أوتى من الخير.

وأنت، أيها الملك، كذلك.

وقد استشرتني في أمر جوابك مني عنه، في بعضه علانية، وفي بعضه سرٌّ، وللأسرار منازل: منها ما يدخل فيه الرهط، ومنها ما يستعان فيه بالقوم، ومنها ما يدخل فيه الرجلان.

ولست أرى لهذا السر على قدر منزلته أن يشارك فيه إلا أربع آذانٍ ولسانان.

فنهض الملك من ساعته، وخلا به، فاستشاره، فكان أول ما سأله عنه الملك أنه قال: هل يعلم ابتداء عداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم: كلمة تكلم بها غراب.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن جماعة من الكراكي لم يكن لها ملك، فأجمعت أمرها على أن يملكن عليهن ملك البوم فبينما هي في مجمعها إذ وقع لها غراب، فقالت: لو جاءنا هذا الغراب لاستشرناه؛ فلم يلبثن دون أن جاءهن الغراب.

فاستشرنه، فقال: لو أن الطير بادت من الأقاليم، وفقد الطاوس، والبط، والنعام، والحمام من العالم لما اضطررتن إلى أن تملّكن عليكنَّ البوم التي هي

أقبح الطير منظرًا، وأسوؤها خلقًا، وأقلها عقلًا، وأشدها غضبًا، وأبعدها من كل رحمة، مع عماها وما بها من العشا بالنهار، وأشد من ذلك وأقبح أمورها سفهًا وسوء أخلاقها، إلا أن ترين أن تملكنها، وتكن أنتن تدبرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن، كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها، ثم عملت برأيها، قال الطير: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن أرضًا من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون، وأجدبت، وقل ماؤها، وغارت عيونها، وذوى نبتها، ويبس شجرها، فأصاب الفيلة عطش شديد: فشكون ذلك إلى ملكهن، فأرسل الملك رسوله ورواده في طلب الماء، في كل ناحية.

فرجع إليه بعض الرسل، فأخبره أني قد وجدت بمكان كذا عينًا يقال لها: عين القمر، كثيرة الماء.

فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين؛ ليشرب منها هو وفيلته.

وكانت العين في أرض للأرانب، فوطئن الأرانب في أجحارهن، فأهلكن منهن كثيرًا، فاجتمعت الأرانب إلى ملكها، فقلن له: قد علمت ما أصابنا من الفيلة، فقال: ليحضرن منكن كل ذي رأي رأيه.

فتقدمت أرنبٌ من الأرانب يقال لها: فيروز.

وكان الملك يعرفها بحسن الرأي والأدب، فقالت: إن رأى الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويرسل معي أمينًا؛ ليرى ويسمع ما أقول، ويرفعه إلى الملك، فقال لها الملك: أنت أمينة، ونرضى بقولك، فانطلقي إلى الفيلة، وبلغي عني ما تريدين.

واعلمي أن الرسول برأيه وعقله، ولينه وفضله، يخبر عن عقل المرسل.

فعليك باللين والرفق، والحلم والتأني؛ فإن الرسول هو الذي يلين الصدور إذا رفق، ويخشن الصدور إذا خرق.

ثم إن الأرنب انطلقت في ليلة قمراء، حتى انتهت إلى الفيلة، وكرهت أن تدنو منهن: مخافة أن يطأنها بأرجلهن، فيقتلنها، وإن كنَّ غير متعمدات.

ثم أشرفت على الجبل ونادت ملك الفيلة وقالت له: إن القمر أرسلني إليك، والرسول غير ملوم فيما يبلغ، وإن أغلظ في القول.

قال ملك الفيلة: فما الرسالة؟ قالت: يقول لك: إن من عرف فضل قوته على الضعفاء، فاغتر بذلك في شأن الأقوياء، قياسًا لهم على الضعفاء، كانت قوته ، بالًا عليه.

وأنت قد عرفت فضل قوتك على الدواب، فغرَّك ذلك، فعمدت إلى العين التي تسمى باسمي، فشربت منها، وكدَّرتها.

فأرسلني إليك: فأنذرك ألا تعود إلى مثل ذلك.

وإنك إن فعلت أُغشِّ بصرك، وأتلف نفسك.

وإن كنت في شكٍّ من رسالتي، فهلم إلى العين من ساعتك؛ فإني موافيك بها.

فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب، فانطلق إلى العين مع فيروز الرسول.

فلما نظر إليها، رأى ضوء القمر فيها.

فقالت له فيروز الرسول: خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهك، واسجد للقمر.

فأدخل الفيل خرطومه في الماء، فتحرك فخيل للفيل أن القمر ارتعد.

فقال: ما شأن القمر ارتعد؟ أتراه غضب من إدخالي الخرطوم في الماء؟ قالت فيروز الأرنب: نعم.

فسجد الفيل للقمر مرة أخرى، وتاب إليه مما صنع، وشرط ألا يعود إلى مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته.

قال الغراب: ومع ما ذكرت من أمر البوم: إنَّ فيها الخبُّ والمكر والخديعة، وشر الملوك الخادع، ومن ابتلى بسلطان مخادع، وخدمه، أصابه ما أصاب الأرنب والصفرد حين احتكما إلى السنور.

قالت الكراكي: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: كان لي جار من الصفاردة في أصل شجرة قريبة من وكري، وكان يكثر مواصلتي، ثم فقدته فلم أعلم أين غاب، وطالت غيبته عني.

فجاءت أرنب إلى مكان الصفرد فسكنته فكرهت أن أخاصم الأرنب فلبثت فيه زمانًا.

ثم إن الصفرد عاد بعد زمان فأتى منزله فوجد فيه الأرنب.

فقال لها: هذا المكان لي، فانتقلي عنه.

قالت الأرنب: المسكن لي، وتحت يدي؛ وأنت مدَّع له.

فإن كان لك حقٌّ فاستعد بإثباته عليَّ.

قال الصفرد: القاضي منا قريب: فهلمي بنا إليه.

قالت الأرنب: ومن القاضي؟ قال الصفرد: إن بساحل البحر سنورًا متعبدًا، يصوم النهار، ويقوم الليل كله؛ ولا يؤذي دابةٍ، ولا يهرق دمًا، عيشه من الحشيش ومما يقذفه إليه البحر.

فإن أحببت تحاكمنا إليه، ورضينا به.

قالت الأرنب: المسكن لي، وتحت يدي، وأنت مدَّعٍ له.

فإن كان لك حق فاستعد بإثباته عليَّ.

قالت الأرنب: ما أرضاني به إذا كان كما وصفت.

فانطلقا إليه فتبعتهما لأنظر إلى حكومة الصوام القوام، ثم إنهما ذهبا إليه فلما بصر السنور بالأرنب والصفرد مقبلين نحوه، انتصب قائمًا يصلي، وأظهر الخشوع والتنسك.

فعجبا لما رأيا من حاله ودنوا منه هائبين له، وسلما عليه وسألاه أن يقضي بينهما.

فأمرهما أن يقصا عليه القصة ففعلا.

فقال لهما: قد بلغني الكبر، وثقلت أذناي فادنوا مني فأسمعاني م تقولان.

فدنوا منه، وأعادا عليه القصة وسألاه الحكم، فقال: قد فهمت ما قلتما، وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما؛ فأنا آمركما بتقوى الله وألا تطلبا إلا

الحق، وطالب الحق هو الذي يفلح وإن قضي عليه، وطالب الباطل مخصوم وإن قضي له.

وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء لا مال، ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه؛ فذو العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقى، وعود نفعه عليه غدًا، وإن يمقت بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا -فإن منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر، ومنزلة الناس عنده فيما يحب أهم من الخير ويكره من الشر بمنزلة نفسه.

ثم إن السِّنُّور لم يزل يقصُّ عليهما من جنس هذا وأشباهه، حتى أنسا إليه، وأقبلا عليه، ودنوا منه، ثم وثب عليهما فقتلهما.

قال الغراب: ثم إن البوم تجمع مع ما وصفت لكن من الشؤم سائر العيوب: فلا يكونن تمليكَ البوم من رأيكن.

فلما سمع الكراكي ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم.

وكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا، فقال الغراب: لقد وترتني أعظم الترة، ولا أعلم أنه سلف مني إليك سوءٌ أوجب هذا.

وبعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر فيعود ينبت السيف يقطع اللحم، ثم يعود فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى مقاطعه.

والنصل من السهم يغيب في اللحم، ثم ينزع فيخرج، وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج.

ولكل حريق مطفئ: فللنار الماء، وللسم الدواء، وللحزن الصبر، ونار الحقد لا تخبو أبدًا.

وقد غرستم معاشر الغربان بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء.

فلما قضى البوم مقالته، ولَّى مغضبًا، فأخبر ملك البوم بما جرى، وبكل ما كان منقول الغراب، ثم إن الغراب ندم على ما فرط منه، وقال: والله لقد خرقت في قولي الذي جلبت به العداوة والبغضاء على نفسي وقومي! وليتني لم أخبر الكراكي بهذه الحال! ولا أعلمتها بهذا الأمر! ولعل أكثرَ الطير قد رأى أكثر مما رأيت، وعلم أضعاف ما علمت، فمنعها من الكلام بمثل ما اتقاء ما لم أتق، والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب، لا سيما إذا كان الكلام أفظع كلام، يلقى منه سامعه وقائله المكروه مما يورث الحقد والضغينة، فلا ينبغي لأشباه هذا الكلام، أن تسمى كلامًا، ولكن سهامًا.

والعاقل، وإن كان واثقًا بقوته وفضله، لا ينبغي أن يحمل ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالًا على ما عنده من الرأي والقوة، كما أنه وإن كان عنده الترياق لا ينبغي له أن يشرب السم اتكالًا على ما عنده.

وصاحب حسن العمل، وإن قصر به القول في مستقبل الأمر، كان فضله بيِّنًا واضحًا في العاقبة والاختيار، وصاحب حسن القول، وإن أعجب الناس منه حسن صفته للأمور لم تحمد عاقبة أمره.

وأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له محمودة.

أليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدًا، ولم أعمل فيه رأيًا؟ ومن لم يستشر النصحاء الأولياء، وعمل برأيه من غير تكرار النظر والروية، لم يغتبط بمواقع رأيه.

فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا، وما وقعت فيه من الهم! وعاتب الغراب نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب.

فهذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم.

وأما القتال فقد علمت رأيي فيه، وكراهتي له، ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى؛ فإنه ربٌ قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا.

ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك، وأخذوا عريضه قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن ناسكًا اشترى عريضًا ضخمًا؛ ليجعله قربانًا، فانطلق به يقوده فبصر به قوم من المكرة، فائتمروا بينهم أن يأخذوه من الناسك.

فعرض له أحدهم فقال له: أيها الناسك، ما هذا الكلب الذي معك؟ ثم عرض له الآخر، فقال لصاحبه: ما هذا ناسكًا؛ لأن الناسك لا يقود كلبًا.

فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشكَّ أنَّ الذي يقوده كلبٌ، وأن الذي باعه إياه سحر عينه، فأطلقه من يده، فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرفق والحيلة.

وإني أريد من الملك أن ينقرني على رءوس الأشهاد، وينتف ريشي وذنبي، ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة، ويرتحل الملك هو وجنوده إلى مكان كذا.

فأرجو أنّي أصبر وأطلع على أحوالهم، ومواضع تحصينهم وأبوابهم، فأخادعهم وآتي إليكم لنهجم عليهم، وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى.

قال الملك: أتطيب نفسك لذلك؟ قال: نعم، وكيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده؟ ففعل الملك بالغراب ما ذُكر، ثم ارتحل عنه فجعل الغراب يئن ويهمس حتى رأته البوم وسمعته يئن، فأخبرن ملكهن بذلك، فقصد نحوه؛ ليسأله عن الغربان فلما دنا منه أمر بومًا أن يسأله، فقال له: من أنت؟ وأين الغربان؟ فقال: أما اسمي ففلان، وأما ما سألتني عنه فإني أحسبك ترى أن حالي حال من لا يعلم الأسرار فقيل لملك البوم: هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه، فنسأله: بأي ذنب صُنع به ما صُنع؟ فسئل الغراب عن أمره، فقال: إن ملكنا استشار جماعتنا فيكنَّ: وكنت يومئذٍ بمحضرٍ من الأمر، فقال: أيها الغربان، ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم؛ لأنهن أشد بطشًا، وأحد قلبًا منًّا، ولكن أرى أن نلتمس الصلح، ثم نبذل الفدية في ذلك، فإن قبلت البوم ذلك منًّا، وإلا هربنا في البلاد، وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كانَ خيرًا لهنَّ وشرًّا لنا، فالصلح أفضل من الخصومة وأمرتهنَّ بالرجوع عن الحرب، وضربت لهن الأمثال في ذلك، وقلت لهن: إن العدوَّ الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له: ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه، وميله معها حيث مالت

فعصينني في ذلك، وزعمن أنهن يردن القتال واتهمنني في ما قلت، وقلنا: إنك قد مالأت البوم علينا، ورددنَ قولي ونصيحتي وعذبنني بهذا العذاب وتركني الملك وجنوده وأرتحل ولا علم لي بهن بعد ذلك: فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه: ما تقول في الغراب؟ وما ترى فيه؟ قال: ما أرى إلا المعاجلة له بالقتل؛ فإن هذا أفضل عُدَدِ الغربان، وفي قتله لنا راحة من مكره وفقده على الغربان شديد، ويقال: من ظفر بالساعة التي فيها ينجح العمل، ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فاته الأمرظ، وهو خليق ألا تعود له الفرصة ثانية، ومن وجد عدوه ضعيفًا ولم ينجز قتله ندم إذا استقوى، ولم يقدر عليه -قال الملك لوزير آخر: ما ترى أنت في هذا الغراب؟ قال: أرى ألا تقتله؛ فإن العدو الذليل الذي لا ناصر له أهلٌ لأن يستبقى ويرحم، ويصفح عنه ولا سيما المستجير الخائف؛ فإنه أهلٌ لأن يؤمن.

قال ملك البومِ لوزير آخر من وزرائه: ما تقول في الغراب؟ قال: أرى أن تستبقيه، وتحسن إليه؛ فإنه خليق أن ينصحك، والعاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضًا ظفرًا حسنًا، ويرى اشتغال بعض أعدائه ببعض خلاصًا لنفسه منهم، ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه!! قال الملك له: وكيف كان ذلك؟

قال الوزير: زعموا أن ناسكًا أصاب من رجل بقرة حلوبًا فانطلق بها يقودها إلى منزله، فعرض له لص أراد سرقتها واتبعه شيطان يريد اختطافه.

فقال الشيطان للص: من أنت؟ قال: أنا اللص، أريد أن أسرق البقرة من الناسك إذا نام.

فمن أنت؟ قال: أنا الشيطان أريد اختطافه إذا نام، وأذهب به فانتهيا على هذا إلى المنزل فدخل الناسك منزله ودخلا خلفه، وأدخل البقرة فربطها في زاوية المنزل وتعشَّى ونام.

فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه واختلفا على من يبدأ بشغله أولًا، فقال الشيطان للص: إن أنت بدأت بأخذ البقرة فربما استيقظ وصاح، واجتمع الناس: فلا أقدر على أخذه فأنظرني ريثما آخذه، وشأنك وما تريد.

فأشفق اللص إن بدأ الشيطان باختطافه فربما استيقظ فلا يقدر على أخذ البقرة، فقال: لا، بل أنظرني أنت حتى آخذ البقرة وشأنك وما تريد فلم يزالا في المجادلة هكذا حتى نادى اللص: أيها الناسك انتبه؛ فهذا الشيطان يريد اختطافك، ونادى الشيطان: أيها الناسك انتبه؛ فهذا اللص يريد أن يسرق بقرتك فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتهما، وهرب الخبيثان.

قال الوزير الأول الذي أشار بقتل الغراب: أظن أن الغراب قد خدعكنَّ، ووقع كلامه في نفس الغبي منكنَّ موقعه، فتردن أن تضعنَّ الرأي في غير موضعه فمهلًا مهلًا أيها الملك عن هذا الرأي.

فلم يلتفت الملك إلى قوله، وأمر الغراب أن يُحمَل إلى منازل البوم، ويُكرم ويُستوصى به خيرًا.

ثم إن الغراب قال للملك يومًا وعنده جماعة من البوم وفيهن الوزير الذي أشار بقتله: أيها الملك قد علمت ما جرى عليَّ من الغربان، وأنه لا يستريح

قلبي إلا بأخذي بثأري منهن، وإني قد نظرت في ذلك فإذا بي لا أقدر على ما رمت؛ لأني غراب وقد رُوي عن العلماء أنهم قالوا: من طابت نفسه بأن يحرقها فقد قرَّب لله أعظم القربان لا يدعو عند ذلك بدعوة إلا استجيب له، فإن رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي، وأدعو ربي أن يحولني بومًا فأكون أشد عداوة وأقوى بأسًا على الغربان؛ لعلي أنتقم منهن! قال الوزير الذي أشار بقتله: ما أشبهك في خير ما تظهر وشر ما تخفي إلا بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقوع فيها السم، أرأيت لو أحرقنا جسمك بالنار كان جوهرك وطباعك متغيرة؟! أليست أخلاقك تدور معك حيثما درت، وتصير بعد ذلك إلى أصلك وطويتك؟ كالفأرة التي خيرت في الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ.

وقيل له: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنه كان ناسكًا مستجاب الدعوة، فبينما هو ذات يوم جالسًا على ساحل البحر إذ مرت به حدأة في رجلها درص فأرة فوقعت منها عند الناسك، وأدركته لها رحمة، فأخذها ولفها في ورقة، وذهب بها إلى منزله، ثم خاف أن تشق على أهله تربيتها فدعا ربه أن يحولها جارية، فتحولت جارية حسناء فانطلق بها إلى امرأته، فقال لها: هذه ابنتي فاصنعي معها صنيعك بولدي.

فلما كبرت قال لها الناسك: يا بنية اختاري من أحببت حتى أزوجك به.

فقالت، أما إذا خيرتني فإني أختار زوجًا يكون أقوى الأشياء.

فقال الناسك: لعلك تريدين الشمس! ثم انطلق إلى الشمس، فقال: أيها الخلق العظيم إن لي جارية وقد طلبت زوجًا يكون أقوى الأشياء، فهل أنت متزوجها؟ فقالت الشمس: أنا أدلك على من هو أقوى مني: السحاب الذي يغطيني، ويرد حر شعاعي، ويكسف أشعة أنواري.

فذهب الناسك إلى السحاب، فقال له ما قال للشمس، فقال السحاب: وأنا أدلك على من هو أقوى مني، فاذهب إلى الريح التي تقبل بي وتدبر، وتذهب بي شرقًا وغربًا، فجاء الناسك إلى الريح، فقال لها كقوله للسحاب، فقالت: وأنا أدلك على من هو أقوى مني وهو الجبل الذي لا أقدر على تحريكه فمضى إلى الجبل، وقال له القول المذكور، فأجابه الجبل، وقال له: أنا أدلك على من هو أقوى مني: الجرذ الذي لا أستطيع الامتناع منه إذا ثقبني واتخذني مسكنًا.

فانطلق الناسك إلى الجرذ، فقال له: هل أنت متزوج هذه الجارية؟ فقال: وكيف أتزوجها وجحري ضيق؟ إنما يتزوج الجرذ الفأرة فدعا الناسك ربه أن يحولها فأرة كما كانت، وذلك برضى الجارية، فأعادها الله إلى عنصرها الأول، فانطلقت مع الجرذ، فهذا مثلك أيها المخادع فلم يلتفت ملك البوم إلى ذلك القول، ورفق بالغراب، ولم يزدد له إلا إكرامًا، حتى إذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع على ما أراد أن يطلع عليه راغ روغة.

فأتى أصحابه بما رأى وسمع، فقال للملك: إني قد فرغت مما كنت أريد ولم يبق إلا أن تسمع وتطيع، فقال له: أنا والجند تحت أمرك، فاحتكم كيف شئت.

قال الغراب: إن البوم بمكان كذا في جبل كثير الحطب وفي ذلك الموضع قطيع من الغنم مع رجل راع، ونحن مصيبون هناك نارًا، ونلقيها في أنقاب البوم ونقذف عليها من يابس الحطب ونتراوح عليها ضربًا بأجنحتنا حتى تضرم النار في الحطب: فمن خرج منهن احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه، ففعل الغربان ذلك: فأهلكنّ البوم قاطبةً، ورجعن إلى منازلهن سالمات آمنات.

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم، ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟ فقال الغراب: إنما ما قلته أيها الملك لكذلك، لكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذي يخاف من عدم تحمله الجائحة على نفسه وقومه -لم يجزع من شدة الصبر عليه، لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة وكثير الخير فلم يجد لذلك ألمًا، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته، فيغتبط بخاتمة أمره وعاقبة صبره.

فقال الملك: أخبرني عن عقول البوم.

فقال الغراب: لم أجد فيهن عاقلًا إلا الذي كان يحثهن على قتلي، وكان حرضهن على ذلك مرارًا فكنَّ أضعف شيء رأيًا! فلم ينظرن في رأيه، ويذكرن أني قد كنت ذا منزلة في الغربان، وأني أعد من ذوي الرأي، ولم يتخوفن مكري وحيلتي، ولا قبلنَ من الناصح الشفيق، ولا أخفين دوني أسرارهن، وقد قال العلماء: ينبغي للملك أن يحصن أموره من أهل النميمة، ولا يطلع أحدًا منهم على مواضع سره، فقال الملك: ما أهلك البوم في نفسي إلا الغي، وضعف رأي

الملك وموافقته وزراء السوء، فقال الغراب: صدقت أيها الملك، إنه قلما ظفر أحد بغنىً ولم يطغ، وقلَّ من أكثر من الطعام إلا مرض.

وقلّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك، وكان يقال: لا يطمعنَّ ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخبُّ في كثرة الصديق، ولا السَّيئُ الأدب في الشرف، ولا الشحيح في البرِّ، ولا الحريص في قلة الذنوب، ولا الملك المحتال، المتهاون بالأمور، الضعيف الوزراء في ثبات ملكه، وصلاح رعيَّته.

قال الملك: لقد احتملت مشقَّة شديدة في تصنعك للبوم، وتضرعك لهنَّ، قال الغراب: إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها، ونحَّى عن نفسه الأنفة والحمية، ووطنها على الصبر حمد غبَّ رأيه، كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره، وشبع بذلك وعاش.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن أسود من الحيات كبر، وضعف بصره وذهبت قوته: فلم يستطع صيدًا، ولم يقدر على طعام وأنه انساب يتلمس شيئًا يعيش به، حتى انتهى إلى عين كثيرة الضفادع، قد كان يأتيها قبل ذلك، فيصيب من ضفادعها رزقه، فرمى نفسه قريبًا منهنَّ مظهرًا الكآبة والحزن، فقال له ضفدع: ما لي أراك أيها الأسود كئيبًا حزينًا؟ قال: ومن أحرى بطول الحزن مني! وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع، فابتليت ببلاء وحرمت عليَّ الضفادع من أجله، حتى إني إذا التقيت ببعضها لا أقدر على إمساكه.

فانطلق الضفدع إلى ملك الضفادع، فبشره بما سمع من الأسود، فقال له: كيف كان أمرك؟ قال: سعيت منذ أيام في طلب ضفدع، وذلك عند المساء

فاضطررته إلى بيت ناسك، ودخلت في أثره في ظلمة، وفي البيت ابن الناسك، فأصبت إصبعه، فظننت أنها الضفدع، فلدغته فمات فخرجت هاربًا، فتبعني الناسك في أثري، ودعا عليَّ، ولعنني وقال: كما قتلت ابني البريء ظلمًا وتعديًا، أدعو عليك أن تذل وتصير مركبًا لملك الضفادع، فلا تستطيع أخذها، ولا أكل شيء منها، إلا ما يتصدق به عليك ملكها، فأتيت إليك لتركبني مقرًّا بذلك راضيًا به، فرغب ملك الضفادع بركوب الأسود، وظن أن ذلك فخرًا له وشرف ورفعة فركب، واستطاب له ذلك.

فقال له الأسود: قد علمت أيها الملك أني محروم فاجعل لي رزقًا أعيش به فقال ملك الضفادع: لعمري لابد من رزق يقوم بك، إذا كنت مركبي فأمر له بضفدعين يؤخذان في كل يوم ويدفعان إليه فعاش بذلك، ولم يضره خضوعه للعدو الذليل، بل انتفع بذلك، وصار له رزقًا ومعيشة، وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه، التماسًا لهذا النفع العظيم الذي اجتمع لنا فيه الأمن الظفر، وهلاك العدو والراحة منه، ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالًا للعدو من صرعة المكابرة؛ فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها، والماء ببرده ولينه يستأصل ما تحت الأرض منها.

ويقال: أربعة أشياء لا يستقل قليلها: النار، والمرض، والعدو، والدين.

قال الغراب: وكل ذلك من رأي الملك، وأدبه، وسعادة جدِّه، وإنه كان يقال: إذا طلب اثنان أمرًا ظفر به منهما أفضلهما مروءة، فإن اعتدلا في المروءة فأشدهما عزمًا.

فإن استويا في العزم فأسعدهما جدًّا، وكان يقال: من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع الذي لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء -كان هو داعي الحتف إلى نفسه، ولا سيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال، ومواضع الشدة واللين، والغضب والرضا والمعاجلة والأناة، الناظر في أمر يومه وغده، وعواقب أعماله.

قال الملك للغراب: بل برأيك، وعقلك، ونصيحتك، ويمن طالعك كان ذلك؛ فإن رأي الرجل الواحد، العاقل، الحازم أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة، من ذوي البأس والنجدة، والعدد والعدة.

وإن من عجيب أمرك عندي طول لبثك بين ظهراني البوم تسمع الكلام الغليظ، ثم لم تسقط بينهن بكلمة! قال الغراب: لم أزل متمسكًا بأدبك أيها الملك: أصحب البعيد والقريب، بالرفق واللين، والمبالغة والمواتاة.

قال الملك: أصبحت وقد وجدتك صاحب العمل، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل؛ ليس لها عاقبة حميدة، فقد منَّ الله علينا بك منَّة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام والشراب، ولا النوم ولا القرار، وكان يقال: لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ، ولا الرجل الشره الذي قد أطعمه سلطانه في مال وعمل في يده، حتى ينجزه له، ولا الرجل الذي قد ألح عليه عدوه، وهو يخافه صباحًا ومساءً حتى يستريح منه قلبه، ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه، ومن أمن عدوه ثلج صدره.

قال الغراب: أسأل الله الذي أهلك عدوك أن يمتعك بسلطانك، وأن يجعل في ذلك صلاح رعيتك، ويشركهم في قرة العين بملكك! فإن الملك إذا لم

يكن في ملكه قرة عيون رعيته، فمثله مثل زنمة العنز التي يمصها، وهو يحسبها حلمة الضرع، فلا يصادف فيها خيرًا.

قال الملك: أيها الوزير الصالح، كيف كانت سيرة البوم وملكها في حروبها، وفيما كانت فيه من أمورها؟ قال الغراب: كانت سيرته سيرة بطر، وأشر وخيلاء وعجز وفخر مع ما فيه من الصفات الذميمة، وكل أصحابه ووزرائه شبيه به، إلا الوزير الذي كان يشير عليه بقتلي؛ فإنه كان حكيمًا أريبًا، فيلسوفًا حازمًا عالمًا، قلما يرى مثله في علو الهمة، وكمال العقل، وجودة الرأي.

قال الملك: وأي خصلة رأيت منه كانت أدل على عقله؟ قال خلتان: إحداهما رأيه في قتلي، والأخرى أنه لم يكتم صاحبه نصيحته وإن استقلها، ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة، ولكنه كلام رفق ولين حتى إنه ربما أخبره ببعض عيوبه ولا يصرح بحقيقة الحال، بل يضرب له الأمثال ويحدثه بعيب غيره، فيعرف عيبه فلا يجد ملكه إلى الغضب عليه سبيلًا، وكان مما سمعته يقول لملكه: إنه لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره؛ فإنه أمر جسيم لا يظفر به من الناس إلا قليل، ولا يدرك إلا بالحزم؛ فإن الملك عزيز فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه، فإنه قد قيل: إنه في قلة بقاءه بمنزلة قلة بقاء الظل عن ورق النيلوفر وهو في خفة زواله، وسرعة إقباله وإدباره كالريح، وفي قلة ثباته كاللبيب مع اللئام، وفي سرعة اضمحلاله كحباب الماء من وقع المطر.

فهذا مثل أهل العداوة الذين لا ينبغي أن يغتر بهم، وإن هم أظهروا توددًا وتضرعًا.

باب القرد والغيلم

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، اضرب لي مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

قال الفيلسوف: إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها، ومن ظفر بحاجة ثم لم يحسن القيام بها أصابه ما أصاب الغيلم.

قال الملك: وكيف ذلك؟ قال بيدبا: زعموا أن قردًا يقال له: ماهر كان ملك القردة، وكان قد كبر وهرم فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة فتغلب عليه، وأخذ مكانه فخرج هاربًا على وجهه حتى انتهى إلى الساحل فوجد شجرة من شجر التين فارتقى إليها وجعلها مقامه، فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، إذا سقطت من يده تينة في الماء فسمع لها صوتًا وإيقاعًا، فجعل يأكل ويرمي في الماء، فأطربه ذلك: فأكثر من طرح التين في الماء، وثَمَّ غيلم كلما وقعت تينة أكلها.

فلما كثر ذلك ظن أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله فرغب في مصادقته، وأنس إليه وكلمه، وألف كل واحد منهما صاحبه.

وطالت غيبة الغيلم عن زوجته: فجزعت عليه وشكت ذلك إلى جارة لها، وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله.

فقالت لها: إن زوجك بالساحل قد ألف قردًا وألفه القرد؛ فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذي قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم عندك حتى تحتالي لهلاك القرد.

قالت: وكيف أصنع؟ قالت لها جارتها: إذا وصل إليك فتمارضي، فإذا سألك عن حالك فقولي: إن الحكماء وصفوا لي قلب قرد.

ثم إن الغيلم انطلق بعد مدة إلى منزله، فوجد زوجته سيئة الحال مهمومةً.

فقال لها الغيلم: مالي أراك هكذا، فأجابته جارتها، وقالت: إن زوجتك مريضة مسكينة.

وقد وصف لها الأطباء قلب قرد، وليس لها دواء سواه قال الغيلم: هذا أمر عسير من أين لنا قلب قرد، ونحن في الماء؟ لكن سأحتال لصديقي، ثم انطلق إلى ساحل البحر: فقال له القرد يا أخي، ما حبسك عني؟ قال الغيلم: ما حبسني إلا حيائي: فلم أعرف كيف أجازيك على إحسانك إليَّ؟ وأريد أن تتم إحسانك إليَّ بزيارتك أي في منزلي؛ فإني ساكن في جزيرة طيبة الفاكهة.

فركب ظهر الغيلم؛ فسبح به حتى إذا سبح به عرض له قبح ما أضمر في نفسه من الغدر، فنكس رأسه، فقال له القرد: مالي أراك مهتمًّا؟ قال الغيلم: إنما همي؛ لأني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض وذلك بمنعي من كثير مما أريد أن أبلغه من حرصك على كرامتك وملاطفتك.

قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مئونة التكليف.

قال الغيلم: أجل ومضى بالقرد ساعةً، ثم توقف به ثانية، فساء ظن القرد، وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر، ولست آمنًا أن يكون قلبه قد تغير لي وحال عن مودتي، فأراد بي سوءًا؛ فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلبًا من القلب، وقد يقال: ينبغي للعاقل ألا يغفل عن التماس ما بنفس أهله وولده

وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة وعند القيام والقعود، وعلى كل حال فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب، وقد قالت العلماء: إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في الحفظ منه، وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته، فإن كان ما يظن حقًّا ظفر بالسلامة، وإن كان باطلًا ظفر بالحزم، ولم يضره ذلك، ثم قال للغيلم: ما الذي يحبسك؟ ومالي أراك مهتمًّا، كأنك تحدث نفسك مرة أخرى؟ قال: يهمني أنك تأتي منزلي فلا تجد أمري كما أحب؛ لأن زوجتي مريضة قال القرد: لا تهتم فإن الهم لا يغني عنك شيئًا، ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية؛ فإنه يقال: ليبذل ذو المال ماله في أربعة مواضع: في الصدقة، وفي الحاجة، وعلى البنين، وعلى الأزواج.

قال الغيلم: صدقت.

وقد قال الأطباء: إنه لا دواء لها إلا قلب قرد، فقال القرد: واأسفاه لقد أدركني الحرص والشره على كبر سني: حتى وقعت في شر ورطة، ولقد صدق الذي قال: يعيش القانع الراضي مستريحًا مطمئنًا، وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعب ونصب.

وإني قد احتجت الآن إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه.

ثم قال الغيلم: وما منعك أن تعلمني عند منزلي حتى كنت أحمل قلبي معي؟ فهذه سنة فينا معاشر القردة إذا خرج أحد لزيارة صديق خلَّف قلبه عند أهله، أو في موضعه، للنظر إذا نظرنا إلى حرم المزور وليس قلوبنا معنا.

قال الغيلم: وأين قلبك الآن؟ قال: خلَّفته في الشجرة، فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة حتى آتيك به؛ ففرح الغيلم بذلك، وقال: لقد وافقني صاحبي بدون أن أغدر به.

ثم رجع بالقرد إلى مكانه فلما أبطأ على الغيلم، ناداه: يا خليلي احمل قلبك وانزل فقد حبستني، فقال القرد: هيهات أتظن أنِّي كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان.

قال الغيلم: وكيف ذلك؟ قال القرد: زعموا أنه كان أسد في أجمةً، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه، فأصاب الأسد جرب، وضعف شديد فلم يستطع الصيد، فقال له ابن آوى: ما بالك يا سيد السباع قد تغيرت أحوالك؟ قال: هذا الجرب الذي قد أجهدني، وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه! قال ابن آوى: ما أيسر هذا! وقد عرفت بمكان كذا حمارًا مع قصار يحمل عليه ثيابه، وأنا آتيك به، ثم دلف إلى الحمار فأتاه، وسلم ،عليه فقال له: مالي أراك مهزولًا؟ قال: ما يطعمني صاحبي شيئًا، فقال له: وكيف ترضى المقام معه على هذا؟ قال: فما لي حيلة في الهرب منه، لست أتوجه إلى جهة إلا أضرَّ بي إنسان فكدني وأجاعني.

قال ابن آوى: فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس، لا يمر به إنسان، خصيب المرعى فيه قطيع من الحمر لم تر عين مثلها حسنًا وسمنًا، قال الحمار: وما يحبسنا عنها؟ فانطلق بنا إليها، فانطلق به ابن آوى نحو الأسد، وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد، فأخبره بمكان الحمار، فخرج إليه وأراد أن يثب عليه، فلم يستطيع لضعفه، وتخلص الحمار منه، فأفلت هلعًا على وجهه، فلما

رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار، قال له: أعجزت يا سيد السباع إلى هذه الغاية؟ فقال له: إن جئتني به مرة أخرى، فلن ينجو مني أبدًا فمضى ابن آوى إلى الحمار، فقال له: ما الذي جرى عليك؟ إن أحد الحمر رآك غريبًا، فخرج يتلقاك مرحبًا بك، ولو ثبت له لآنسك، ومضى بك إلى أصحابه فلما سمع الحمار كلام ابن آوى، ولم يكن رأى أسدًا قط، صدقه وأخذ طريقه إلى الأسد، وأعلمه بمكانه، وقال له: استعد له فقد خدعته لك، فلا يدركنَّك الضعف في هذه النوبة؛ إن أفلت فلن يعود معي أبدًا، فجأش جأش الأسد لتحريض ابن آوى له، وخرج إلى موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها.

ثم قال: قد ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور: فاحتفظ به حتى أعود فآكل قلبه وأذنيه، وأترك ما سوى ذلك قوتًا لك فلما ذهب الأسد ليغتسل، عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه، رجاء أن يتطير الأسد منه، فلا يأكل منه شيئًا، فقال لابن آوى: أين قلب الحمار وآذناه؟ قال ابن آوى: ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به، وأذنان يسمع بهما، لم يرجع إليك بعد ما أفلت ونجا من الهلكة: وإنَّما ضربت لك هذا المثل؛ لتعلم أني لست كذلك الحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان، ولكنك احتلت عليَّ وخدعتني، فخدعتك بمثل خديعتك، واستدركت فارط أمري.

وقد قيل: إن الذي يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم.

قال الغيلم: صدقت، إلا أن الرجل الصالح يعترف بزلته، وإذا أذنب ذنبًا لم يستحي أن يؤدَّب؛ لصدقه في قوله وفعله، وإن وقع في ورطة أمكنه التخلص

منها بحيلته وعقله: كالرجل الذي يعثر على الأرض، ثم ينهض عليها معتمدًا، فهذا مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

الناسك وابن عرس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل.

فاضرب لي مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية، ولا نظر في العواقب.

قال الفيلسوف: إنه من لم يكن في أمره متثبتًا لم يزل نادمًا، ويصير أمره إلى ما صار إليه الناسك من قتل ابن عرس، وقد كان له ودودًا.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن ناسكًا من النساك بأرض جرجان وكانت له امرأة جميلة، فمكثا زمنًا لم يرزقا ولدًا، ثم حملت منه بعد الإياس، فسرت المرأة وسر الناسك بذلك، فحمد الله تعالى، وسأله أن يكون الحمل ذكرًا، وقال لزوجته: أبشري فإني أرجو أن يكون غلامًا لنا فيه منافع، وقرة عين، أختار له أحسن الأسماء، وأحضر له سائر الأدباء.

فقالت المرأة: ما يحملك أيها الرجل على أن تتكلم بما لا تدري أيكون، أم لا؟ ومن فعل ذلك أصابه ما أصاب الناسك الذي أراق على رأسه السمن والعسل.

قال لها: وكيف ذلك؟ قالت: زعموا أن ناسكًا كان يجري عليه من بيت رجل تاجر، في كل يوم رزق من السمن والعسل، وكان يأكل منه قوته وحاجته، ويرفع الباقي ويجعله في جرة، فيعلقها في وتد في ناحية البيت حتى

امتلأت فبينما الناسك ذات يوم مستلقٍ على ظهره والعكاز في يده والجرة معلقة على رأسه، تفكَّر في غلاء السمن والعسل، فقال: سأبيع ما في هذه الجرة بدينار، وأشتري به عشرة أعنز، فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطنًا، ولا تلبث قليلًا حتى تصير غنمًا كثيرة إذا ولدت أولادها، ثم حرر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز، فقال: أنا أشتري بها مائة من البقر، وأشترى أرضًا وبذرًا، وأستأجر أكرة وأزرع على الثيران، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها، فلا يأتي عليَّ خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالًا كثيرًا، فأبني بيتًا فاخرًا وأشتري إماء وعبيد، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن، ثم تأتي بغلام سري نجيب، فأختار له أحسن الأسماء، فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه، وأشدد عليه في ذلك، فإن يقبل مني، وإلا ضربته بهذه العكازة وأشار إلى الجرة فكسرها، فسال ما كان فيها على وجهه وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لكي لا تعجل بذكر ما لا ينبغي ذكره، وما لا تدري أيصح أم لا يصح؟ فاتعظ الناسك بما حكت زوجته.

ثم إن المرأة ولدت غلامًا جميلًا ففرح به أبوه، وبعد أيام حان لها أن تتطهر، فقالت المرأة للناسك: اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام فأغتسل وأعود، ثم إنها انطلقت إلى الحمام، وخلفت زوجها والغلام فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه ولم يجد من يخلفه عند ابنه غير ابن عرس داجن عنده كان قد رباه صغيرًا؛ فهو عنده عديل ولده فتركه الناسك عند الصبي، وأغلق عليهما البيت وذهب مع الرسول.

فخرج من بعض أحجار البيت حية سوداء فدنت من الغلام فضربها ابن عرس ثم وثب عليها فقتلها ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها، ثم جاء الناسك وفتح الباب فالتقاه ابن عرس كالمبشر له بما صنع من قتل الحية.

فلما رآه ملوثًا بالدم وهو مذعور طار عقله، وظن أنه قد خنق ولده، ولم يتثبت في أمره ولم يتروَ فيه حتى يعلم حقيقة الحال، ويعمل بغير ما يظن من ذلك، ولكن عجل ابن عرس وضربه بعكازة كانت في يده على أم رأسه فمات.

ودخل الناسك فرأى الغلام سليمًا حيًّا وعنده أسود مقطع.

فلما عرف القصة، وتبين له سوء فعله في العجلة لطم على رأسه.

وقال: ليتني لم أرزق هذا الولد، ولم أغدر هذا الغدر، ودخلت امرأته فوجدته على تلك الحال، فقالت له: ما شأنك فأخبرها بالخبر من حُسنِ فعل ابن عرس، وسوء مكافأته له، فقالت: هذه ثمرة العجلة، فهذا مثل من لا يتثبت في أمره، بل يفعل أغراضه بالسرعة والعجلة.

باب الجرذ والسنور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل رجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب، فأشرف معهم على الهلاك، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته، فسلم من الخوف، وأمن ثم وفى لمن صالحه منهم.

قال الفيلسوف: إن المودة والعداوة لا تثبتان على حالة واحدة أبدًا.

وربما حالت المودة إلى العداوة، وصارت العداوة ولاية وصداقة.

ولهذا حوادث وعلل، وتجاريب، وذو الرأي يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأيًا جديدًا: إما من قبل العدو فبالبأس وإما من قبل الصديق فبالاستئناس، ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوه من مقاربته والاستنجاد به على دفع مخوف، أو جر مرغوب.

ومن عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته.

ومثل ذلك مثل الجرذ، والسنور حين وقعا في الورطة فنجوا باصطلاحهما جميعًا من الورطة والشدة قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال بيدبا: زعموا أن شجرة عظيمة كان في أصلها جحر سنور يقال له: رومي وكان قريبًا منه جحر جرذ يقال له: فريدون، وكان الصيادون كثيرًا يتداولون ذلك المكان يصيدون فيه الوحش والطير، فنزل ذات يوم صياد فنصب حبالته قريبًا من موضع رومي، فلم يلبث أن وقع فيها.

فخرج الجرذ يدب، ويطلب ما يأكل، وهو حذر من رومي فبينما هو يسعى إذ بصر به في الشرك، فسرَّ واستبشر، ثم التفت فرأى خلفه ابن عرس، يريد أخذه، وفي الشجرة بومًا، يريد اختطافه، فتحيَّر في أمره، وخاف إن رجع وراءه أخذه ابن عرس، وإن ذهب يمينًا أو شمالًا اختطفه البوم، وإن تقدم أمامه افترسه السنور.

فقال في نفسه: هذا بلاء قد اكتنفني، وشرور تظاهرت عليَّ، ومحنٌ قد أحاطت بي.

وبعد ذلك فمعي عقلي، فلا يفزعني أمري، ولا يهولني شأني، ولا يلحقني الدهش، ولا يذهب قلبي شعاعًا؛ فالعاقل لا يفرق عند سداد رأيه، ولا يعزب عنه ذهنه على حال.

وإنما العقل شبيهٌ بالبحر الذي لا يدرك غوره، ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهوده فيهلكه، وتحقق الرجاء لا ينبغي أن يبلغ منه مبلغًا يبطره ويسكره، فيعمى عليه أمره، ولست أرى لي من هذا البلاء مخلصًا إلا مصالحة السنُّور؛ فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي أو بعضه، ولعله إن سمع كلامي الذي أكلِّمه به، ووعى عنِّي فَصِيحَ خطابي، ومحض صدقي الذي لا خلاف فيه، ولا خداع معه ففهمه، وطمع في معونتي إياه -نَخلُصْ جميعًا.

ثم إن الجرذ دنا من السنُّور، فقال له: كيف حالك؟ قال له السنور: كما تحب: في ضنك وضيق.

قال: وأنا اليوم شريكك في البلاء، ولست أرجو لنفسي خلاصًا إلا بالذي أرجو لك فيه الخلاص، وكلامي هذا ليس فيه كذب ولا خديعة، وابن عرس ها هو كامنٌ لي، والبوم يرصدني، وكلاهما لي ولك عدوٌّ، فإن جعلت لي الأمان قطعت حبائلك، وخلَّصتك من هذه الورطة، فإذا كان ذلك تخلَّص كل واحد منَّا بسبب صاحبه كالسفينة والركاب في البحر؛ فبالسفينة ينجون، وبهم تنجو السفينة.

فلما سمع السنور كلام الجرذ، وعرف أنه صادق قال له: إن قولك هذا لشبيه بالحق، وأنا أيضًا راغب فيما أرجو لك ولنفسي به الخلاص.

ثم إنك إن فعلت ذلك فسأشكر لك ما بقيت قال الجرذ: فإني سأدنو منك فأقطع الحبائل كلها إلا حبلًا واحدًا أبقيه لأستوثق لنفسي منك، ثم أخذ في قرض حبائله ثم إن البوم وابن عرس لما رأيا دنو الجرذ من السنور أيسا منه وانصرفا، ثم إن الجرذ أبطأ على رومي قطع الحبائل فقال له: مالي لا أراك مجدًّا في قطع حبائلي فإن كنت قد كنت ظفرت بحاجتك فتغيرت عما كنت عليه، وتوانيت في حاجتي فما ذلك من فعل الصالحين؛ فإن الكريم لا يتوانى في حق صاحبه.

وقد كان لك في سابق مودتي من الفائدة والنفع ما قد رأيت.

وأنت حقيق أن تكافئني بذلك، ولا تذكر العداوة التي بيني وبينك: فالذي حدث بيني وبينك من الصلح حقيق أن ينسيك ذلك مع ما في الوفاء من الفضل والأجر، وما في الغدر من سوء العاقبة؛ فإن الكريم لا يكون إلا شكورًا، غير حقود، تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة، وقد يقال: إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر، ومن إذا تُضرِع إليه وسئل العفو فلم يرحم، ولم يعف فقد غدر.

قال الجرذ: إن الصديق صديقان: طائع، ومضطر وكلاهما يلتمسان المنفعة، ويحترسان من المضرة، فأما الطائع فيسترسل إليه ويؤمن في جميع الأحوال، وأما المضطر ففي بعض الأحوال يسترسل إليه، وفي بعضها يتحذر منه.

ولا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجاته لبعض ما يتقي ويخاف، وليس عاقبة التواصل من المتواصل إلا طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله، وأنا وافٍ

لك بما جعلت لك، ومحترس منك مع ذلك من حيث أخافك تخوفًا أن يصيبني منك ما ألجأني خوفه إلى مصالحتك، وألجأك إلى قبول ذلك مني؛ فإن لكل عمل حينًا.

فما لم يكن منه في حينه فلا حسن لعاقبته.

وأنا قاطع حبائلك كلها غير أني تارك عقدة واحدة أرتهنك بها، ولا أقطعها إلا في الساعة التي أعلم أنك فيها عني مشغول؛ وذلك عند معاينتي الصياد.

ثم إن الجرذ أخذ في قطع حبائل السنور.

فبينما هو كذلك إذ وافى الصياد، فقال له السنور: الآن جاء الجد في قطع حبائلي.

فأجهد الجرذ نفسه في القرض حتى إذا فرغ وثب السنور إلى الشجرة على دهش من الصياد، ودخل الجرذ بعض الأحجار، وجاء الصياد فأخذ حبائله مقطعةً، ثم انصرف خائبًا.

ثم إن الجرذ خرج بعد ذلك، وكره أن يدنو من السنُّور، فناداه السنُّور: أيها الصديق الناصح، ذو البلاء الحسن عندي، ما منعك من الدنوِّ إليَّ؛ لأجازيك بأحسن ما أسديت إليَّ، هلمَّ إليَّ ولا تقطع إخائي؛ فإنه من اتخذ صديقًا، وقطع إخاءه، وأضاع صداقته، حُرِمَ ثمرة إخائه، وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء.

وإن يدك عندي لا تنسى، وأنت حقيقٌ أن تلتمس مكافأة ذلك مني ومن إخواني وأصدقائي.

ولا تخافنَّ مني شيئًا.

واعلم أن ما قِبلي لك مبذولٌ.

ثم حلف واجتهد على صدقه فيما قال.

فناداه الجرذ: ربَّ صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة.

وهي أشد من العداوة الظاهرة.

ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل المغتلم، ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن الفيل، فيدوسه ويقتله.

وإنما سُمِّي الصديق صديقًا لما يرجى من نفعه، وسُمِّي العدو عدوًا لما يخاف من ضرره.

والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة، وإذا خاف ضرَّ الصديق أظهر له العداوة.

ألا ترى تتُّبع البهائم أمهاتها رجاء ألبانها، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها؟ وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله، فلم يخف شرَّه؛ لأن أصل أمره لم يكن عداوة.

فأما من كان أصل أمره عداوة جوهرية، ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك، فإنه إذا زالت الحاجة التي حملته على ذلك زالت صداقته، فتحولت عداوة وصار إلى أصل أمره كالماء الذي يسخن بالنار، فإذا رفع عنها عاد باردًا.

وليس من أعدائي عدوٌّ أضر لي منك.

وقد اضطرني وإياك وإلى ما أحدثنا من المصالحة.

وقد ذهب الأمر الذي احتجت إليّ واحتجت إليك فيه، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة.

ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي، ولا للذليل في قرب العدو العزيز.

ولا أعلم لك قبلي حاجة، وليس عندي بك ثقة؛ فإني قد علمت أن الضعيف المحترس من العدو القوي أقرب إلى السلامة من القوي إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه.

والعاقل يصالح عدوه إذا اضطر إليه، ويصانعه، ويظهر له ودَّه، ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدًّا، ثم يعجِّل الانصراف عنه، حين يجد إلى ذلك سبيلًا.

واعلم أن سريع الاسترسال لا تقال عثرته، والعاقل يفي لمن صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه، ولا يثق به كل الثقة، ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه، وينبغي أن يبعد عنه ما استطاع.

وأنا أودك من بعيد، وأحب لك من البقاء والسلامة، ما لم أكن أحبه لك من قبل.

ولا عليك أن تجازيني على صنيعي إلا بمثل ذلك؛ إذ لا سبيل إلى اجتماعنا والسلام.

باب ابن الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل أهل التِّرات الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض.

قال بيدبا: زعموا أن ملكًا من ملوك الهند كان يقال له: بريدون، وكان له فرخ، وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق، وكان الملك بهما معجبًا، فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته، وأمرها بالمحافظة عليهما.

واتفق أن امرأة الملك ولدت غلامًا، فألف الفرخ الغلام.

وكلاهما طفلان يلعبان جميعًا، وكان فنزة يذهب إلى الجبل كل يوم، فيأتي بفاكهة لا تُعرف فيطعم ابن الملك شطرها.

ويطعم فرخه شطرها.

فأسرع ذلك في نشأتهما، وزاد في شبابهما، وبان عليهما أثره عند الملك: فازداد لفنزة إكرامًا وتعظيمًا ومحبة حتى إذا حان يوم من الأيام وفنزة غائب في اجتناء الثمرة، وفرخه في حجر الغلام ذرق في حجره، فغضب الغلام وأخذ الفرخ فضرب به الأرض فمات.

ثم إن فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولًا فصاح وحزن، وقال: قبحًا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء.

ويل لمن ابتلي بصحبة الملوك الذين لا حمى لهم ولا حرمة، ولا يحبون أحد، ولا يكرم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من غناه، واحتاجوا إلى ما عنده من علم، فيكرمونه لذلك فإذا ظفروا بحاجتهم منه -فلا ود، ولا إخاء، ولا

إحسان، ولا غفران ذنب، ولا معرفة حق، هم الذين أمرهم مبني على الرياء والفجور، وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم.

ومنهم هذا الكفور الذي لا رحمة له الغادر بأليفه وأخيه.

ثم وثب في شدة حنقه على وجه الغلام ففقأ عينه، وطار فوقع على شرفة المنزل.

ثم إنه بلغ الملك ذلك، فجزع أشد الفزع، ثم طمع أن يحتال له فوقف قريبًا منه وناداه، وقال له: إنك آمن فانزل يا فنزة.

فقال له: أيها الملك إن الغادر مأخوذ بغدره، وإنه إن أخطأه عاجل العقوبة لم يخطئه الآجل حتى إنه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب، وإن ابنك غدر بابني، فعجلت له العقوبة.

قال الملك: لعمري قد غدرنا بابنك، فانتقمت منا فليس لك قبلنا، ولا لنا قبلك وتر مطلوب، فارجع إلينا آمنًا.

قال فنزة: لست براجع إليك أبدًا؛ فإن ذوي الرأي قد نهوا عن قرب الموتور؛ فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمه إياك إلا وحشة منه، وسوء ظن به؛ فإنك لا تجد للحقود الموتور أمانًا هو أوثق لك من الذعر منه، ولا أجود من البعد عنه، والاحتراس منه أولى.

وقد كان يقال: إن العاقل يعد أبويه أصدقاء، والإخوة رفقاء، والأزواج ألفاء، والبنين ذكرًا، والبنات خصماء، والأقارب غرماء، ويعد نفسه فريدًا.

وأنا الفريد الوحيد الغريب الطريد قد تزودت من عندكم من الحزن عبئًا ثقيلًا لا يحمله معي أحد، وأنا ذاهب، فعليك مني السلام.

قال الملك: إنك لو لم تكن اجتزيت منا فيما صنعناه بك، بل كان صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر -كان الأمر كما ذكرت.

وأما إذا كنا نحن بدأناك، فما ذنبك؟ وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ هلم فارجع: فإنك آمن.

قال فنزة: اعلم أن الأحقاد لها في القلوب مواقع ممكنة موجعة.

فالألسن لا تصدق في خبرها عن القلوب، والقلب أعدل شهادة من اللسان على القلب.

وقد علمت أن قلبي لا يشهد للسانك، ولا قلبك للساني.

قال الملك: ألم تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس: فمن كان ذا عقل كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته.

قال فنزة: إن ذلك لكما ذكرت، ولكن ليس ينبغي لذي الرأي مع ذلك أن يظن أن الموتور الحقود ناسٍ ما وتر به، مصروف عنه فكره فيه.

وذو الرأي يتخوف المكر والخديعة والحيل، ويعلم أن كثيرًا من العدو لا يستطاع بالشدة والمكابرة، حتى يصاد بالرفق والملاينة، كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الداجن.

قال الملك: إن العاقل الكريم لا يترك إلفه، ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ، وإن هو خاف على نفسه، حتى إن هذا الخلق يكون في أوضع الدواب منزلة؛ فقد علمت أن اللعابين يلعبون بالكلاب، ثم يذبحونها ويأكلونها.

ويرى الكلب الذي قد ألفهم ذلك، فلا يدعوه إلى مفارقتهم، ولا يمنعه من إلفته إياهم.

قال فنزة: إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت.

فأخوفها وأشدها ما كان في أنفس الملوك؛ فإن الملوك يدينون بالانتقام، ويرون الدرك والطلب بالوتر مكرمة وفخرًا.

وإن العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن فإنما مثل الحقد في القلب، إذا لم يجد محركًا، مثل الجمر المكنون، ما لم يجد حطبًا، فليس ينفك القد متطلعًا إلى العلل، كما تبتغي النار الحطب فإذا وجد علة استعر استعار النار، فلا يطفئه حسن كلام، ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة، ولا شيء دون تلف الأنفس.

مع أنه رب واتر يطمع في مراجعة الموتور بما يرجو أن يقدر عليه من النفع له، والدفع عنه.

ولكني أنا أضعف عن أن أقدر على شيء يذهب به ما في نفسك.

ولو كانت نفسك منطوية لي على ما تقول ما كان ذلك عني مغنيًا، ولا أزال في خوف ووحشة وسوء ظن ما اصطحبنا.

فليس الرأي بيني وبينك إلا الفراق، وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك: لقد علمت أنه لا يستطيع أحد لأحد ضرًّا ولا نفعًا، وأنه لا شيء من الأشياء صغيرًا ولا كبيرًا يصيب أحد ألا بقضاء وقدر معلوم.

وكما أن خلق ما يخلق، وولادة ما يولد، وبقاء ما يبقى ليس إلى الخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى وهلاك ما يهلك.

وليس لك في الذي صنعت بابني ذنب، ولا لابني فيما صنع بابنك ذنب.

إنما كان ذلك كله قدرًا مقدورًا، وكلانا له علة: فلا نؤاخذ بها به القدر.

قال فنزة: إن القدر لكما ذكرت، لكن لا يمنع ذلك الحازم من توقي المخاوف، والاحتراس من المكاره.

ولكنه يجمع تصديقًا بالقدر وأخذًا بالحزم والقوة.

وأنا أعلم أنك تكلمني بغير ما في نفسك.

والأمر بيني وبينك غير صغير؛ لأن ابنك قتل ابني، وأنا فقأت عين ابنك، وأنت تريد أن تشتفي بقتلي، وتختلني عن نفسي، والنفس تأبى الموت.

وقد كان يقال: الفاقة بلاء، والحزن بلاء، وقرب العدو بلاء، وفراق الأحبة بلاء، والسقم بلاء، والهرم بلاء، ورأس البلايا كلها الموت.

وليس أحد بأعلم بما في نفس الموجع الحزين ممن ذاق مثل ما به.

فأنا بما في نفسي عالم بما نفسك؛ للمثل الذي عندي من ذلك.

ولا خير لي في صحبتك؛ فإنك لن تتذكر صنيعي بابنك، ولن أتذكر صنيع ابنك بابني، إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييرًا.

قال الملك: لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه، وينساه ويهمله؛ حتى لا يذكر منه شيئًا، ولا يكون له في نفسه موقع.

قال فنزة: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة، إن هو حرص على المشي فلا بد أنه لا يزال يشتكي قرحته، والرجل الأرمد العين إذا استقبل بها الريح، تعرض لأن تزداد رمدًا.

وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور فقد عرض نفسه للهلاك.

ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف، وتقدير الأمور وقلة الاتكال على الحول والقوة، وقلة الاغترار بمن لا يأمن؛ فإنه من اتكل على قوته، فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف، فقد سعى في حتف نفسه.

ومن لا يقدر لطاقته طعامه وشرابه وحمل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه.

ومن لا يقدر لقمته، وعظمها فوق ما يسع فوه، فربما غص بها فمات.

ومن اغتر بكلام عدوه، وانخدع له وضيَّع الحزم -فهو أعدى لنفسه من عدوه.

وليس لأحد النظر في القدر الذي لا يدري ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه، ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة، ومحاسبة نفسه في ذلك.

والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع، ولا يقيم على خوف وهو يجد عنه مذهبًا.

وأنا كثير المذاهب، وأرجو ألا أذهب وجهًا إلا أصبت فيه ما يغنيني؛ فإن خلالًا خمسًا من تزودهن كفينه في كل وجه، وآنسنه في غربة، وقربن له البعيد، وأكسبنه المعاش والإخوان: أولهن: كف الأذى.

والثانية: حسن الأدب.

والثالثة: مجانبة الريب.

والرابعة: كرم الخلق.

والخامسة: النبل في العمل.

وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئًا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن؛ فإنه يرجو الخلف من ذلك كله، ولا يرجو عن النفس خلفًا.

وشر المال ما لا إنفاق منه، وشر الأزواج التي لا تواتي بعلها، وشر الولد العاصي العاق لوالديه، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذي يخافه البريء، ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشر البلاد بلاد بلا خصب فيها ولا أمن، وإنه لا أمن لي عندك أيها الملك، ولا طمأنينة لي في جوارك، ثم ودع الملك وطار، فهذا مثل ذوي الأوتار الذين لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض.

باب الأسد والشغبر الناسك وهو ابن آوى

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم، أو جفوة من غير ذنب.

قال الفيلسوف: إن الملك لو لم يراجع من أصابته منه جفوة عن ذنب، أو عن غير ذنب، ظلم أولم يظلم -لأضر ذلك ويخبر ما عنده من المنافع، فإن كان ممن يوثق به في رأيه وأمانته؛ فإن الملك حقيق بالحرص على مراجعته؛ فإن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوي الرأي؛ وهم: الوزراء، والأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا مودة، ولا نصيحة إلا لذوي الرأي والعفاف.

وأعمال السلطان كثيرة، والذين يحتاج إليهم من العمال والأعوان كثيرون، ومن يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة والعفاف قليل.

والمثل في ذلك مثل الأسد وابن آوى، قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ابن آوى كان يسكن في بعض الدحال، وكان متزهدًا متعففًا، مع بنات آوى، وذئاب، وثعالب.

ولم يكن يصنع ما يصنعن، ولا يغير كما يغرن، ولا يهريق دمًا ولا يأكل لحمًا.

فخاصمه تلك السباع، وقلن: لا نرضى بسيرتك، ولا رأيك الذي أنت عليه من تزهدك، مع أن تزهدك لا يغني عنك شيئًا.

وأنت لا تستطيع أن تكون إلا كأحدنا: تسعى معنا، وتفعل فعلنا فما الذي كفك عن الدماء، وعن أكل اللحم؟ قال ابن آوى: إن صحبتي إياكن لا تؤثمني إذا لم أؤثم نفسي؛ لأن الآثام ليست من قبل الأماكن والأصحاب، ولكنها من قبل القلوب والأعمال.

وأنت ملك السباع وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير فيهم: أهل نبل وقوة، ولهم على العمل حرص، وعندهم به وبالسلطان رفق؛ فإن استعملتهم أغنوا عنك، واغتبطوا لأنفسهم بما أصابهم من ذلك.

قال الأسد: دع عنك هذا؛ فإني غير معفيك من العمل.

قال ابن آوى: إنما يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما: إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته، وإما مغفل لا يحسده أحد.

فمن أراد أن يخدم السلطان بالصدق، والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته، وحينئذ قل أن يسلم على ذلك؛ لأنه يجتمع عليه عدو السلطان، وصديقه بالعداوة والحسد.

أما الصديق فينافسه في منزلته، ويبغى عليه فيها ويعاديه لأجلها، وأما عدو السلطان فيضطغن عليه لنصيحته لسلطانه وإغنائه عنه.

فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرض للهلاك.

قال الأسد: لا يكونن بغي أصحابي عليك، وحسدهم إياك مما يعرض في نفسك؛ فأنت معي، وأنا أكفيك ذلك، وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان على قدر همتك.

قال ابن آوى: إن كان الملك يريد الإحسان إليَّ فليدعني في هذه البرية أعيش آمنًا قليل الهم راضيًا بعيشي من الأذى والخوف في ساعة واحدة ما لا

يصل إلى غيره في طول عمره، وإن قليلًا من العيش في أمن وطمأنينة خير من كثير من العيش في خوف ونصب.

قال الأسد: قد سمعت مقالتك، فلا تخف شيئًا مما أراك تخاف منه.

ولست أجد بدًّا من الاستعانة بك في أمري.

قال ابن آوى: أما إذا أبى الملك إلا ذلك فليعجل لي عهدًا إن بغى عليَّ أحد من أصحابه عنده، ممن هو فوقي: مخافة على منزلته، أو ممن هو دون؛ لينازعني في منزلتي، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه، أو على لسان غيره ما يريد به تحميل الملك على ألا يعجل في أمر، وأن يتثبت فيما يرفع إليه، ويذكر عنده من ذلك، ويفحص عنه، ثم ليصنع ما بدا له.

فإذا وثقت منه بذلك أعنته بنفسي فيما يحب، وعملت له فيما أولاني بنصيحة واجتهاد، وحرصت على ألا أجعل له على نفسي سبيلًا.

قال الأسد: لك ذلك عليَّ وزيادة.

ثم ولاه خزائنه، واختص به دون أصحابه، وزاد في كرامته.

فلما رأى أصحاب الأسد ذلك غاظهم وساءهم؟ فأجمعوا كيدهم، واتفقوا كلهم على أن يحملوا عليه الأسد، وكان الأسد قد استطاب لحمًا فعزل منه مقدرًا، وأمره بالاحتفاظ به، وأن يرفعه في أحصن موضع طعامه، وحملوه إلى بيت ابن آوى، فخبئوه فيه، ولا علم له به، ثم حضروا يكذبونه إن جرت في ذلك حال.

فلما كان من الغد، ودعا الأسد بغدائه فقد ذلك اللحم، فالتمسه ولم يجده، وابن آوى لم يشعر بما صنع في حقه من المكيدة.

فحضر الذين عملوا المكيدة، وقعدوا في المجلس.

ثم إن الملك سأل عن اللحم، وشدد فيه، وفي المسألة عنه، فنظر بعضهم إلى بعض، فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بد لنا من أن نخبر الملك بما يضره وينفعه، وإن شق ذلك على من يشق عليه.

وإنه بلغني أن ابن آوى هو الذي ذهب باللحم إلى منزله.

قال الآخر: لا أراه يفعل هذا، ولكن انظروا وفحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة.

فقال الآخر: لعمري ما تكاد السرائر تعرف، وأظنكم إن فحصتم عن هذا وجدتم اللحم ببيت ابن آوى، وكل شيء يذكر من عيوبه وخيانته نحن أحق أن نصدقه.

قال الآخر: لئن وجدنا هذا حقًّا فليست بالخيانة فقط، ولكن مع الخيانة كفر النعمة، والجراءة على الملك.

قال الآخر: أنتم أهل العدل والفضل، لا أستطيع أن أكذبكم، ولكن سيبين هذا لو أرسل الملك إلى بيته من يفتشه.

قال الآخر: إن كان الملك مفتشًا منزله فليعجل؛ فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكان.

ولم يزالوا في الكلام و أشباهه، حتى وقع في نفس الأسد ذلك، فأمر بابن آوى فحضر، فقال له: أين اللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟ قال: دفعته إلى صاحب الطعام؛ ليقربه إلى الملك.

فدعا الأسد بصاحب الطعام، وكان ممن بايع مع القوم على ابن آوى.

فقال: ما دفع إليَّ شيئًا.

فأرسل الأسد أمينًا إلى بيت ابن آوى ليفتشه، فوجد فيه ذلك اللحم، فأتى به الأسد.

فدنا من الأسد ذئب لم يكن تكلم في شيء من ذلك.

وكان يظهر أنه من العدول الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون، حتى يتبين لهم الحق.

فقال: بعد أن اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفونَّ عنه؛ فإنه إن عفا عنه لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن، ولا ذنب مذنب.

فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج، ويحتفظ به.

فقال بعض جلساء الملك: إني لأعجب من رأي الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفى عليه أمر هذا، ولم يعرف خبثه ومخادعته؟ وأعجب من هذا أني أراه سيصفح عنه، بعد الذي ظهر منه.

فأرسل الأسد بعضهم رسولًا إلى ابن آوى يلتمس منه العذر، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها فغضب الأسد من ذلك، وأمر بابن آوى أن يقتل.

فعلمت أم الأسد أنه قد عجَّل في أمره، فأرسلت إلى الذين أمروا بقتله أن يؤخروه، ودخلت على ابنها، فقالت: يا بني بأي ذنب أمرت بقتل ابن آوى؟ فأخبرها بالأمر.

فقالت: يا بنيَّ عجَّلت.

وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبت.

والعجلة لا يزال صاحبها يجتني ثمرة الندامة، بسبب ضعف الرأي.

وليس أحد أحوج إلى التُّؤدة والتثبت من الملوك؛ فإن المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلم بالمعلم، والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعمل، والعقل بالتثبت والأناة، ورأس الكل الحزم، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه، وإنزالهم منازلهم على طبقاتهم، واتهامه بعضهم على بعض.

فإنه لو وجد بعضهم إلى هلاك بعض سبيلًا لفعل.

وقد جربت ابن آوى، وبلوت رأيه وأمانته ومروءته، ثم لم تزل مادحًا له راضيًا عنه.

وليس ينبغي للملك أن يخوِّنه بعد ارتضائه إياه وائتمانه له، ومنذ مجيئه إلى الآن لم يطلع له على خيانة إلا على العفة والنصيحة.

وما كان رأي الملك أن يعجل عليه لأجل طابق لحم.

وأنت أيها الملك حقيق أن تنظر في حال ابن آوى؛ لتعلم أنه لم يكن ليتعرَّض للحم استودعته إياه، ولعل الملك إن فحص عن ذلك ظهر له أن ابن آوى له خصماء هم الذين ائتمروا بهذا الأمر.

وهم الذين ذهبوا باللحم إلى بيته فوضعوه فيه؛ فإن الحدأة إذا كان في رجلها قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير، والكلب إذا كان معه عظم اجتمع عليه الكلاب.

وابن آوى منذ كان إلى اليوم نافع، وكان محتملًا لكل ضرر في جنب منفعة تصل إليك، ولكل عناء يكون لك فيه راحة، ولم يطوِ دونك سرًّا.

فبينما أم الأسد تقص عليه هذه المقالة، إذ دخل على الأسد بعض ثقاته، فأخبره ببراءة ابن آوى.

فقالت أم الأسد، بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى: إن الملك حقيق ألا يرخِّص لمن سعى به لئلا يتجرءوا إلى ما هو أعظم من ذلك، بل يعاقبهم عليه؛ لكي لا يعودوا إلى مثله، فإنه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمر الكفور للحسنى، الجريء على الغدر، الزاهد في الخير الذي لا يوقن بالآخرة.

وينبغي أن يجزى بعمله، وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة، ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير.

والأولى لك أن تراجع ابن آوى، وتعطف عليه، ولا يؤيسنك من مناصحته ما فرط منك إليه من الإساءة؛ فإن مَن الناس من لا ينبغي تركه على حال من الأحوال، وهو من عرف بالصلاح والكرم، وحسن العهد، والشكر

والوفاء، والمحبة للناس، والسلامة من الحسد، والبعد من الأذى، والاحتمال للإخوان، والأصحاب، وإن ثقلت عليه منه المئونة.

وأما من ينبغي تركه فهو من عرف بالشراسة، ولؤم العهد، وقلة الشكر، والوفاء، والبعد من الرحمة، والورع، واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها.

وقد عرفت ابن آوى وجربته، وأنت حقيق بمواصلته.

فدعا الأسد بابن آوى، واعتذر إليه مما كان منه ووعده خيرًا، وقال: إني معتذر إليك ورادُّك إلى منزلتك.

فقال ابن آوى: إن شر الأخلاء من التمس منعة نفسه بضر أخيه، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل اتباع هواه.

وكثيرًا ما يقع ذلك بين الأخلاء.

وقد كان من الملك إلى ما علم فلا يغلظن على نفسه ما أخبره به، إني به غير واثق، وإنه لا ينبغي لي أن أصحبه؛ فإن الملوك لا ينبغي أن يصحبوا من عاقبوه أشد العقاب، ولا ينبغي لهم أن يرفضوه أصلًا؛ فإن ذا السلطان إذا عزل كان مستحقًّا للكرامة في حالة إبعاده، والإقصاء له، فلم يلتفت الأسد إلى كلامه.

ثم قال له: إني قد بلوت طباعك وأخلاقك، وجربت أمانتك ووفاءك وصدقك، وعرفت كذب من تمحَّل الحيلة لتحملي عليك.

وإني منزلك من نفسي منزلة الأخيار الكرماء، والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان، الخلال الكثيرة من الإساءة.

وقد عدنا إلى الثقة بك، فعد إلى الثقة بنا؛ فإن لنا ولك بذلك غبطة وسرور.

فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يلي، وضاعف له الملك الكرامة، ولم تزده الأيام إلا تقربًا من السلطان.

باب إيلاذ وبلاذ وايراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلًا في الأشياء التي يجب على الملك أن يلزم بها نفسه، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه، ويكون ذلك رأس أمره وملاكه: أبالحلم، أم بالمروءة، أم بالشجاعة، أم بالجود؟ قال بيدبا: إن أحق ما يحفظ به الملك ملكه الحلم، وبه تثبت السلطنة، والحلم رأس الأمور وملاكها، وأجود ما كان في الملوك: كالذي زعموا من أنه كان ملك يدعى بلاذ، وكان له وزير يدعى إيلاذ.

وكان متعبدًا ناسكًا.

فنام الملك ذات ليلة، فرأى في منامه ثمانية أحلام أفزعته، فاستيقظ مرعوبًا.

فدعا البراهمة، وهم النسَّاك؛ ليعبروا رؤياه.

فلما حضروا بين يديه قص عليهم ما رأى.

فقالوا بأجمعهم: لقد رأى الملك عجبًا فإن أمهلتنا سبعة أيام جئناه بتأويله.

قال الملك: قد أمهلتكم فخرجوا من عنده، ثم اجتمعوا في منزل أحدهم، وائتمروا بينهم.

وقالوا: قد وجدتم علمًا واسعًا تدركون به ثأركم وتنتقمون به من عدوكم، وقد علمتم أنه قتل منا بالأمس اثني عشر ألفًا.

وها هو قد أطلعنا على سره وسألناه تفسير رؤياه: فهلم نغلظ له القول، ونخوفه حتى يحمله الفرق والجزع على أن يفعل الذي نريد ونأمره.

فنقول: ادفع إلينا أحباءك ومن يكرم عليك حتى نقتلهم؛ فإنا قد نظرنا في كتابنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك، وما وقعت فيه من هذا للشر إلا بقتل من نسُمِّي لك، فإن قال الملك: وما تريدون أن تقتلوا؟ سموهم لي.

قلنا: نريد الملكة إيراخت أم جوير المحمودة أكرم نسائك عليك.

ونريد جوير أحب بنيك إليك وأفضلهم عندك.

ونريد ابن أخيك الكريم، وإيلاذ خليلك وصاحب أمرك، ونريد كالا الكاتب صاحب سرك وسيفك الذي لا يوجد مثله، والفيل الأبيض الذي لا تلحقه الخيل، والفرس الذي هو مركبك في القتال، ونريد الفيلين الآخرين العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذكر.

ونريد البختي السريع القوي.

ونريد كباريون الحكيم الفاضل العالم بالأمور؛ لننتقم منه بما فعل بنا.

ثم نقول: إنما ينبغي لك أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سمَّيناهم لك، ثم تجعل دماءهم في حوض تملؤه، ثم تقعد فيه.

فإذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربعة نجول حولك فنرقيك، ونتفل عليك، ونمسح عنك الدم، ونغسلك بالماء والدهن الطيب.

ثم تقوم إلى منزلك البهيِّ، فيدفع الله بذلك البلاء الذي نتخوفه عليك.

فإن صبرت، أيها الملك، وطابت نفسك عن أحبائك الذين ذكرنا لك، وجعلتهم فداءك، تخلصت من البلاء، واستقام لك ملكك وسلطانك، واستخلفت من بعدهم من أحببت.

وإن أنت لم تفعل تخوَّفنا عليك أن يغضب ملكك أو تهلك.

فإن هو أطاعنا فيما نأمره قتلناه أي قتلة شئنا.

فلما أجمعوا على ما ائتمروا به رجعوا إليه في اليوم السابع.

وقالوا له: أيها الملك، إنَّا نظرنا في كتبنا في تفسير ما رأيت، وفحصنا عن الرأي فيما بيننا -فلتكن لك أيها الملك الطاهر الصالح الكرامة.

ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلا أن تخلو بنا.

فأخرج الملك من كان عنده وخلا بهم، فحدثوا بالذي ائتمروا به.

فقال لهم: الموت خير لي من الحياة إن أنا قتلت هؤلاء الذين هم عديل نفسي.

وأنا ميت لا محالة، والحياة قصيرة، ولست كل الدهر ملكًا، وإن الموت عندي وفراق الأحباء سواء.

قال له البراهمة: إن أنت لم تغضب أخبرناك، فأذن لهم.

فقالوا: أيها الملك إنك لم تقل صوابًا حين تجعل نفس غيرك أعز عندك من نفسك، فاحتفظ بنفسك وملكك، واعمل هذا الذي لك فيه الرجاء العظيم على ثقة ويقين، وقرَّ عينًا بملكك في وجوه أهل مملكتك الذين شرفت وكرمت بهم، ولا تدع الأمر العظيم، وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك إيثارًا لمن تحب، واعلم أيها الملك أن الإنسان إنما يحب الحياة محبة لنفسه، وأنه لا يحب من أحب من الأحباء إلا ليتمتع بهم في حياته، وإنما قوام نفسك بعد الله تعالى بملكك، وإنك لم تنل ملكك إلا بالمشقة والعناء الكثير في الشهور والسنين، وليس ينبغي أن ترفضه ويهون عليك، فاستمع كلامنا.

فانظر لنفسك مناها، ودع ما سواها؛ فإنه لا خطر له.

فلما رأى الملك أن البراهمة قد أغلظوا له في القول واجترءوا عليه في الكلام اشتد غمُّه وحزنه.

وقام من بين ظهرانيهم، ودخل إلى حجرته فخرَّ على وجهه يبكي، ويتقلب كما تتقلب السمكة إذا خرجت من الماء، وجعل يقول في نفسه: ما أدري أي الأمرين أعظم في نفسي؟ المملكة أم قتل أحبائي؟ ولن أنال الفرح ما عشت.

وليس ملكي بباقٍ عليَّ إلى الأبد.

ولست بالمصيب سؤلي في ملكي، وإني لزاهد في الحياة إذا لم أرى إيراخت، وكيف أقدر على القيام بملكي إذا هلك وزيري إيلاذ؟ وكيف أضبط أمري إذا هلك فيلي الأبيض وفرسي الجواد؟ وكيف أدعى ملكًا وقد قتلت من أشار

البراهمة بقتله؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم؟ ثم إن الحديث فشا في الأرض بحزن الملك وهمِّه، فلما رأى إيلاذ ما نال الملك من الهم والحزن فكَّر بحكمته، ونظر وقال: ما ينبغي لي أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الأمر الذي قد ناله من غير أن يدعوني.

ثم انطلق إلى إيراخت، فقال: إني منذ خدمت الملك إلى الآن لم يعمل عملًا إلا بمشورتي ورأيي، وأراه يكتم عني أمرًا لا أعلم ما هو، ولا أراه يظهر منه شيئًا، وإني رأيته خاليًا مع الجماعة البرهميين منذ ليال.

وقد احتجب عنَّا فيها.

وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على شيء من أسراره.

فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره، ويدخل عليه منه السوء، فقومي وادخلي عليه فاسأليه عن أمره وشأنه، وأخبريني بما هو عليه وأعلميني: فإني لست أقدر على الدخول عليه.

فلعلَّ البرهميين قد زينوا له أمرًا، أو حملوه على خطة قبيحة.

وقد علمت أن من خُلُقِ الملك أنه إذا غضب لا يسأل أحدًا.

وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها، فقالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه بهذه الحال.

فقال لها إيلاذ: لا تحملي عليه الحقد في مثل هذا، ولا يخطرنَّ ذلك على بالك؛ فليس يقدر على الدخول عليه أحد سواك.

وقد سمعته كثيرًا يقول: ما أشتد غمِّي، ودخلت عليَّ إيراخت إلا سرِّى عني، فقومي إليه واصفحي عنه.

وكلميه بما تعلمين أنه تطيب به نفسه ويذهب الذي يجده.

وأعلميني بما يكون جوابه؛ فإنه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة، فانطلقت إيراخت فدخلت على الملك فجلست عند رأسه.

فقالت: ما الذي بك أيها الملك المحمود؟ وما الذي سمعت من البراهمة؟ فإني أراك محزونًا، فأعلمني ما بك، فقد ينبغي لنا أن نحزن معك ونواسيك بأنفسنا.

فقال الملك: أيتها السيدة لا تسأليني عن أمري فتزيديني غمًّا وحزنًا؛ فإنه أمر لا ينبغي أن تسأليني عنه.

قالت: أو قد نزلت عندك منزلة من يستحق هذا؟ إنما أحمد الناس عقلاً من إذا نزلت به النازلة كان لنفسه أشد ضبطًا، وأكثرهم استماعًا من أهل النصح؛ حتى ينجو من تلك النازلة بالحيلة والعقل، والبحث والمشاورة؛ فعظيم الذنب لا يقنط من الرحمة.

ولا تدخلنَّ عليك شيئًا من الهم والحزن؛ فإنهما لا يردان شيئًا مقضيًا إلا أنهما ينحلان الجسم، ويشفيان العدو.

قال لها الملك: لا تسأليني عن شيء فقد شققت عليَّ.

والذي تسألينني عنه لا خير فيه؛ لأن عاقبته هلاكي، وهلاكك، وهلاك كثير من أهل مملكتي، ومن هو عديل نفسي؛ وذاك أن البراهمة زعموا أنه لا بد

من قتلك وقتل كثير من أهل مودتي، ولا خير في العيش بعدكم، وهل أحد يسمع بهذا إلا اعتراه الحزن؟

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت، ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعًا.

فقالت: أيها الملك لا تجزع فنحن لك الفداء.

ولك في سواي ومثلي من الجواري ما تقر به عينك، ولكني أطلب منك، أيها الملك، حاجة يحملني على طلبها حبي لك، وإيثاري إياك، وهي نصيحتي لك.

قال الملك: وما هي؟ قالت: أطلب منك أن لا تثق بعدها بأحد من البراهمة، ولا تشاورهم في أمر حتى تتثبت في أمرك.

ثم تشاور فيه ثقاتك مرارًا؛ فإن القتل أمر عظيم، ولست تقدر على أن تحيي من قتلت.

وقد قيل في الحديث: إذا لقيت جوهرًا لا خير فيه فلا تلقيه من يدك حتى تريه من يعرفه.

وأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك، واعلم أن البراهمة لا يحبونك.

وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفًا.

ولا تظن أن هؤلاء ليسو من أولئك.

ولعمري ما كنت جديرًا أن تخبرهم برؤياك، ولا أن تطلعهم عليها.

وإنما قالوا لك ما قالوا لأجل الحقد الذي بينك وبينهم؛ لعلهم يهلكونك، ويهلكون أحباءك، ووزيرك، فيبلغوا قصدهم منك.

فأظنك لو قبلت منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بك، وغلبوك على ملكك، فيعود الملك إليهم كما كان.

فانطلق إلى كباريون الحكيم، فهو عالم فطن فاخبره عمّا رأيت في رؤياك، واسأله عن وجهها وتأويلها.

فلما سمع الملك ذلك سُرِّي عنه ما كان يجده من الغم.

فأمر بفرسه فأسرج، فركبه، ثم انطلق إلى كباريون الحكيم.

فلما انتهى إليه نزل عن فرسه وسجد له، وقام مطأطئًا الرأس بين يديه.

فقال له الحكيم: ما بالك أيها الملك؟ وما لي أراك متغير اللون؟ فقال له الملك: إني رأيت في المنام ثمانية أحلام فقصصتها على البراهمة، وأنا خائف أن يصيبني من ذلك عظيم أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياي، وأخشى أن يغصب مني ملكي، أو أن أغلب عليه.

فقال له الحكيم: إن شئت فاقصص رؤياك عليَّ.

فلما قص عليه الملك رؤياه.

قال: لا يحزنك أيها الملك هذا الأمر، ولا تخف منه.

أما السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على أذنابهما -فإنه يأتيك رسول من ملك نهاوند بعلبة فيها عقدان من الدر والياقوت الأحمر، قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهب فيقوم بين يديك.

وأما الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك -فإنه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس على الأرض مثلهما فيقومان بين يديك.

وأما الحية التي رأيتها تدب على رجلك اليسرى -فإنه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله.

وأما الدم الذي رأيت كأنه خضب به جسدك -فإنه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلَّة أرجوان يضيء في الظلمة.

وأما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء -فإنه يأتيك من ملك رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتان من لباس الملوك.

وأما ما رأيت من أنك على جبل أبيض -فإنه يأتيك من ملك كيدور من يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل.

وأما ما رأيت على رأسك شبيهًا بالنار -فإنه يأتيك من ملك أرزن من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكللٍ بالدر والياقوت.

وأما الطير الذي رأيته ضرب رأسك بمنقاره -فلست مفسرًا ذلك اليوم.

وليس بضارك، فلا توجلن منه.

ولكن فيه بعض السخط والإعراض عمَّن تحبه، فهذا تفسير رؤياك أيها الملك، وأما هذه الرسل والبرد فإنهم يأتونك بعد سبعة أيامٍ جميعًا، فيقومون بين يديك.

فلما سمع الملك ذلك سجد لكباريون، ورجع إلى منزله.

فلما كان بعد سبعة أيام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك فجلس على التخت، وأذن للأشراف، وجاءته الهدايا كما أخبره كباريون الحكيم.

فلما رأى الملك ذلك اشتد عجبه وفرحه من علم كباريون.

وقال: ما وفقت حين قصصت رؤياي على البراهمة، فأمروني بما أمروني به.

ولولا أن الله تعالى تداركني برحمته لكنت قد هلكت وأهلكت؛ وكذلك لا ينبغي لكل أحد أن يسمع إلا من الأخلاء ذوي العقول، وإن إيراخت أشارت بالخير فقلبته، ورأيت به النجاح، فضعوا الهدية بين يديها لتأخذ منها ما اختارت.

ثم قال لإيلاذ: خذ الإكليل واحملها واتبعني بها إلى مجلس النساء، ثم إن الملك دعا إيراخت وحورقناه أكرم نسائه بين يديه.

فقال لإيلاذ: ضع الكسوة والإكليل بين يدي إيراخت لتأخذ أيها شاءت، فوضعت الهدايا بين يدي إيراخت، فأخذت منها الإكليل، وأخذت حورقناه كسوة من أفخر الثياب وأحسنها، وكان من عادة الملك أن يكون ليلة عند إيراخت، وليلة عند حورقناه.

وكان من سنة الملك أن تهيء له المرأة التي يكون عندها في ليلتها أرزًا بحلاوة فتطعمه إياه، فأتى الملك إيراخت في نوبتها وقد صنعت له أرزًا، فدخلت عليه بالصَّحفة والإكليل على رأسها، فعلمت حورقناه بذلك فغارت من إيراخت، فلبست تلك الكسوة، ومرت بين يدي الملك، وتلك الثياب تضيء عليها مع نور وجهها كما تضيء الشمس.

فلما رآها الملك أعجبته.

ثم التفت إلى إيراخت، فقال: إنك جاهلة حين أخذت الإكليل، وتركت الكسوة التي ليس في خزائننا مثلها.

فلما سمعت إيراخت مدح الملك لحورقناه وثناءه عليها وتجهيلها هي وذمَّ رأيها أخذها من ذلك الغيرة والغيظ، فضربت بالصحفة رأس الملك، فسال الأرز على وجهه، فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ.

فقال له: ألا ترى، وأنا ملك العالم، كيف حقرتني هذه الجاهَلة، وفعلت بي ما ترى؟ فانطلق بها فاقتلها ولا ترحمها.

فخرج إيلاذ من عند الملك، وقال: لا أقتلها حتى يسكن عنه الغضب؛ فالمرأة عاقلة سديدة الرأي من الملكات التي ليس لها عديل في النساء، وليس الملك بصابر عنها، وقد خلصته من الموت، وعملت أعمالًا صالحة، ورجاؤنا فيها عظيم، ولست آمنه أن يقول: لمَ لمْ تؤخر قتلها حتى تراجعني؟ فلست قاتلها حتى أنظر رأي الملك فيها ثانية؛ فإن رأيته نادمًا حزينًا على ما صنع جئت بها حية.

وكنت قد عملت عملًا عظيمًا، وأنجيت إيراخت من القتل، وحفظت قلب الملك، واتخذت عند عامة الناس بذلك يدًا.

وإن رأيته فرحًا مستريحًا مصوِّبًا رأيه في الذي فعله وأمر به، فقتلها لا يفوت.

ثم انطلق بها إلى منزله، ووكل بها خادمًا من أمنائه، وأمره بخدمتها وحراستها، حتى ينظر ما يكون من أمرها وأمر الملك.

ثم خضب سيفه بالدم، ودخل على الملك كالكئيب الحزين.

فقال أيها الملك: إني قد أمضيت أمرك في إيراخت.

فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب، وذكر جمال إيراخت وحسنها، واشتد أسفه عليه، وجعل يعزي نفسه عنها، ويتجلد وهو مع ذلك يستحي أن يسأل إيلاذ: أحقًّا أمضى أمره فيها أم لا؟ ورجا -لما عرف من عقل إيلاذ- ألا يكون قد فعل ذلك، ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الذي به، فقال له: لا تهتم، ولا تحزن أيها الملك؛ فإنه ليس في الهم والحزن منفعة.

ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه، فاصبر أيها الملك على ما لست بقادر عليه أبدًا، وإن أحب الملك حدثته بحديث يسليه.

قال: حدثني.

قال إيلاذ: زعموا أن حمامتين: ذكرًا وأنثى ملأا عشهما من الحنطة والشعير، فقال الذكر للأنثى: إنا إذا وجدنا في الصحارى ما نعيش به، فلسنا نأكل مما هاهنا شيئًا.

فإذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحارى شيء رجعنا إلى ما في عشنا فأكلناه، فرضيت الأنثى بذلك، وقالت له: نعم ما رأيت.

وكان ذلك الحب نديًّا حين وضعاه في عشهما.

فانطلق الذكر فغاب.

فلما جاء الصيف يبس الحب وانضمر.

فلما رجع الذكر رأى الحب ناقصًا.

فقال لها: أليس كنا أجمعنا رأينا على ألا نأكل منه شيئًا؟ فلِمَ أكلته؟ فجعلت تحلف أنها ما أكلت منه شيئًا، وجعلت تعتذر إليه فلم يصدقها، وجعل ينقرها حتى ماتت.

فلما جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندى الحب، وامتلأ العش كما كان.

فلما رأى الذكر ذلك ندم.

ثم اضطجع إلى جانب حمامته، وقال: ما ينفعني الحب والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجدك، ولم أقدر عليك، وإذا فكرت في أمرك وعلمت أني قد ظلمتك، ولا أقدر على تدارك ما فات، ثم استمر على حزنه فلم يطعم طعامًا ولا شرابًا حتى مات إلى جانبها.

والعاقل لا يعجل في العذاب والعقوبة، ولا سيما من يخاف الندامة، كما ندم الحمام الذكر.

وقد سمعت أيضًا أن رجلًا دخل الجبل وعلى رأسه كارة من العدس فوضع الكارة عن ظهره ليستريح.

فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفه من العدس وصعد إلى الشجرة.

فسقطت من يده حبة فنزل في طلبها فلم يجدها.

وانتثر ما كان في يده من العدس أجمع.

وأنت أيضًا أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدع أن تلهو بهن وتطلب التي لا تجد؟؟! فلما سمع الملك ذلك خشي أن تكون إيراخت قد هلكت.

فقال لإيلاذ: لم لا تأنيت وتثبت؟ بل أسرعت عند سماع كلمة واحدة فتعلقت بها، وفعلت ما أمرتك به من ساعتك؟ قال إيلاذ: إن الذي قوله واحد لا يختلف هو الله الذي لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله.

قال الملك: لقد أفسدت أمري، وشددت حزني بقتل إيراخت.

قال إيلاذ: اثنان ينبغي لهما أن يحزنا: الذي يعمل الإثم في كل يوم، والذي لم يعمل خيرًا قط؛ لأن فرحهما في الدنيا ونعيمهما قليل.

وندامتهما إذ يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها.

قال الملك: لئن رأيت إيراخت حيةً لا أحزن على شيءٍ أبدًا.

قال إيلاذ: اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا: المجتهد في البر كل يوم، والذي لم يأثم قط.

قال الملك: ما أنا بناظرٍ إلى إيراخت أكثر مما نظرت.

قال إيلاذ: اثنان لا ينظران: الأعمى، والذي لا عقل له.

وكما أن العمى لا ينظر السماء ونجومها وأرضها، ولا ينظر القرب والبعد، كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء.

قال الملك: لو رأيت إيراخت لاشتد فرحي.

قال إيلاذ: اثنان هما الفرحان: البصير، والعالم.

فكما أن البصير يبصر أمور العالم وما فيه من زيادة ونقصان والقريب والبعيد، فكذلك العالم يبصر البر والإثم، ويعرف عمل الآخرة، ويتبين له نجاته، ويهتدي إلى صراط المستقيم.

قال الملك: ينبغي لنا أن نتباعد منك ياإيلاذ، ونأخذ الحذر، ونلزم الاتقاء.

قال إيلاذ: اثنان يجب أن نتباعد منهما: الذي يقول: لا بر، ولا إثم، ولا عقاب، ولا ثواب، ولا شيء علي مما أنا فيه، والذي لا يكاد فيه يصرف بصره عما ليس له بمحرم، ولا أذنه عن استماع السوء، ولا قلبه عما تهم به نفسه من الإثم والحرص.

قال الملك: صارت يدي من إيراخت صفرًا.

قال إيلاذ: ثلاثة أشياء أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل، قال الملك: إنك يا إيلاذ لتلقي الجواب.

قال إيلاذ: ثلاثة يلقون بالجواب: الملك الذي يعطي ويقسم من خزائنه، والمرأة المهداة التي تهوى من ذوي الحسب، والرجل العالم الموفق للخير.

ثم إن إيلاذ لما رأى الملك اشتد به الأمر، قال: أيها الملك إن إيراخت بالحياة.

فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه، وقال يا إيلاذ: إنما منعني من الغضب ما أعرف من نصيحتك، وصدق حديثك.

وكنت أرجو لمعرفتي بعلمك ألا تكون قد قتلت إيراخت؛ فإنها وإن كانت أتت عظيمًا وأغلظت في القول فلم تأته عداوة، ولا طلب مضرة، ولكنها فعلت ذلك للغيرة، وقد كان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأتحمله، ولكنك يا إيلاذ أردت أن تختبرني وتتركني في شك من أمرها، وقد أخذت عندي أفضل الأيدي، وأنا لك شاكر، فانطلق فأتني بها، فخرج من عند الملك فأتي إيراخت وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك.

وانطلق بها إلى الملك، فلما دخلت سجدت له، ثم قامت بين يديه، وقالت: أحمد الله تعالى، ثم أحمد الملك الذي أحسن إليَّ؛ قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلًا بعده، فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته، ثم أحمد إيلاذ الذي أخر أمري، وأنجاني من الهلكة؛ لعلمه برأفة الملك، وسعة حلمه، وجوده، وكرم جوهره، ووفاء عهده.

وقال الملك لإيلاذ: ما أعظم يدك عندي، وعند إيراخت، وعند العامة؛ إذ قد أحييتها بعد ما أمرت بقتلها! فأنت الذي وهبتها لي اليوم؛ فإني لم أزل واثقًا بنصيحتك وتدبيرك.

وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيمًا، وأنت محكَّمٌ في ملكي تفعل فيه بما ترى، وتحكم عليه بما تريد.

فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بكْ، قال إيلاذ: أدام الله لك أيها الملك المُلكَ والسرور، فلست بمحمود على ذلك، فإنما أنا عبدك.

لكن حاجتي ألَّا يعجل الملك في الأمر الجسيم الذي يندم على فعله، وتكون عاقبته الغم والحزن.

ولا سيما في مثل هذه الملكة الناصحة المشفقة التي لا يوجد في الأرض مثلها، فقال الملك: بحق قلت يا إيلاذ، وقد قبلت قولك، ولست عاملًا بعدها عملًا صغيرًا ولا كبيرًا، فضلًا عن مثل هذا الأمر العظيم الذي ما سلمت منه، إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد إلى ذوي العقول ومشاورة أهل المودة والرأي.

ثم أحسن الملك جائزة لإيلاذ، ومكَّنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبائه، فأطلق فيهم السيف، وقرت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته، وحمدوا الله وأثنوا على كباريون بسعة علمه وفضل حكمته؛ لأنه بعلمه خلَّص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة.

باب اللبوة والإسوار والشغبر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلًا في شأن من يدع ضرَّ غيره إذا قدر عليه لما يصيبه من الضرِّ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره.

قال الفيلسوف: إنه لا يقدم على طلب ما يضر الناس وما يسوءهم إلا أهل الجهالة والسفه، وسوء النظر في العواقب من أمور الدنيا والآخرة، وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة، وبما يلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا تحيط به العقول.

وإن سلم بعضهم من ضرر بعض بمنية عرضت له قبل أن ينزل به وبال ما صنع؛ فإن من لم يفكر في العواقب لم يأمن المصائب، وحقيق ألا يسلم من المعاطب.

وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من غيره، فارتدع عن أن يغشى أحدًا بمثل ذلك من الظلم والعدوان، وحصل له نفع ما كفَّ عنه من ضرر لغيره في العاقبة، فنظير ذلك حديث اللبؤة والإسوار والشغبر.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن لبؤة كانت في غيضة، ولها شبلان، وأنها خرجت في طلب الصيد وخلفتهما في كهفهما، فمرَّ بهما إسوار فحمل عليهما ورماهما فقتلهما، وسلخ جلديهما فاحتقبهما، وانصرف بهما إلى منزله، ثم إنها رجعت.

فلما رأت ما حلَّ بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهرًا لبطن وصاحت وضجَّت، وكان إلى جانبها شغبر، فلما سمع ذلك من صياحها قال لها: ما هذا الذي تصنعين؟ وما نزل بك؟ فأخبريني به.

قالت اللبؤة: شبلاي مرَّ بهما إسوار فقتلهما، وسلخ جلديهما فاحتقبهما، ونبذهما بالعراء.

قال لها شغبر: لا تضجِّي وأنصفي من نفسك، واعلمي أن هذا الإسوار لم يأت إليك شيئًا إلا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله، وتأتين إلى غير واحد مثل ذلك، ممن كان يجد بحميمه، ومن يعز عليه مثل ما تجدين بشبليك.

فاصبري على فعل غيرك كما صبر غيرك على فعلك؛ فإنه قد قيل: كما تدين تدان.

ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب.

وهما على قدره في الكثرة والقلة، كالزرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره.

قالت اللبؤة: بيِّن لي ما تقول، وأفصح لي عن إشارته.

قال الشغبر: كم أتى لك من العمر؟ قالت اللبؤة: مائة سنة.

قال الشغبر: ما كان قوتك؟ قالت اللبؤة: لحم الوحش.

قال الشغبر: من كان يطعمك إياه؟ قالت اللبؤة: كنت أصيد الوحش وآكله.

قال الشغبر: أرأيت الوحش التي كنت تأكلين، أما كان لها آباء وأمهات؟ قالت: بلى.

قال الشغبر: فما بالي لا أرى ولا أسمع لتلك الآباء والأمهات من الجزع والضجيج ما أرى وأسمع لك؟ أما أنه لم ينزل بك ما نزل إلا لسوء نظرك في العواقب، وقلة تفكيرك فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها:

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الشغبر عرفت أن ذلك مما جنت على نفسها، وأن عملها كان جورًا وظلمًا، فتركَت الصيد، وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار والمسك والعبادة.

فلما رأى ذلك ورشان الذي كان صاحب تلك الغيضة، وكان عيشه من الثمار.

قال لها: قد كنت أظن أن الشجرة عامنا هذا لم تحمل: لقلة الماء، فلما أبصرتك تأكلينها، وأنت آكلة اللحم، فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله

لك، وتحولت إلى رزق غيرك فانتقصته، ودخلت عليه فيه؛ علمت أن الشجر العام أثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم، وإنما أتت قلة الثمر من جهتك.

فويل للشجر، وويل للثمار، وويل لمن عيشه منها! ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم في أرزاقهم، وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ، ولم يكن معتادًا لأكلها! فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار، وأقبلت على أكل الحشيش والعبادة.

وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضرٍّ يصيبه عن ضرِّ الناس، كاللبؤة التي انصرفت لما لقيت في شبليها عن أكل اللحم، ثم عن أكل الثمار بقول الورشان، وأقبلت على النُّسك والعبادة.

والناس أحق بحسن النظر في ذلك؛ فإنه قد قيل: ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك؛ فإن في ذلك العدل، وفي العدل رضا الله تعالى ورضا الناس.

باب الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل.

فاضرب لي مثل الذي يدع صنعه الذي يليق به ويشاكله، ويطلب غيره فلا يدركه، فيبقى حيران مترددًا.

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابدٌ مجتهدٌ.

فنزل به ضيفٌ ذات يومٍ، فدعا الناسك لضيفه بتمر؛ ليطرفه به.

فأكلا منه جميعًا، ثم قال الضيف: ما أحلى هذا التمر وأطيبه! فليس هو في بلادي التي أسكنها، وليته كان فيها! ثم قال: أرى أن تساعدني على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا؛ فإني لست عارفًا بثمار أرضكم، هذه ولا بمواضعها.

فقال له الناسك: ليس لك في ذلك راحة؛ فإن ذلك يثقل عليك، ولعل ذلك لا يوافق أرضكم، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلى التمر مَعَ وخامته، وقلة موافقته للجسد؟ ثم قال له الناسك: إنه لا يعد حكيمًا من طلب ما لا يجد.

وإنك سعيد الجدِّ إذا قنعت بالذي تجد، وزهدت فيها لا تجد.

وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية.

فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه؛ وعالج في ذلك نفسه أيامًا.

فقال الناسك لضيفه: ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك، وتكلفت من كلام العبرانية، في مثل ما وقع فيه الغراب! قال الضيف: وكيف كان ذلك؟

قال الناسك: زعموا أن غرابًا رأى حجلة تدرج وتمشي، فأعجبته مشيتها، وطمع أن يتعلمها.

فراض على ذلك نفسه، فلم يقدر على إحكامها، وأيس منها، وأراد أن يعود إلى مشيته التي كان عليها فإذا هو قد اختلط وتخلع في مشيته، وصار أقبح الطير مشيًا.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذي طبعت عليه، وأقبلت على لسان العبرانية، وهو لا يشاكلك، وأخاف ألا تدركه، وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرُّهم لسانًا؛ فإنه قد قيل: إنه يعد جاهلًا من تكلف من الأمور ما لا يشاكله، وليس من عمله، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل.

باب السائح والصائغ

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل.

فاضرب لي مثلًا في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه.

قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة.

وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع، أو على رجلين، أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس البر والفاجر.

وقد يكون في بعض البهائم، والسباع، والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذٍ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه، ولا يضعوه عند من لا يحتمله.

ولا يقوم بشكره، ولا يصطنع أحدًا إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره.

ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريبًا لقرابته، إذا كان غير محتملٍ للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورفدهم للبعيد، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه؛ لأنه يكون حينئذٍ عارفًا بحق ما اصطنع إليه، مؤديًا لشكر ما أنعم عليه، محمودًا بالنصح، معروفًا بالخير، صدوقًا عارفًا، مؤثرًا لحميد الفعال والقول.

وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها -كان للمعروف موضعًا، ولتقريبه واصطناعه أهلًا؛ فإن الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر إلى مداواة المريض إلا بعد النظر إليه، والجس لعروقه، ومعرفة طبيعته، وسبب علته، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته.

فكذلك العاقل: لا ينبغي له أن يصطفي أحدًا، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة؛ فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطرًا في ذلك، ومشرفًا منه على هلاك وفساد.

ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله في طبائعه فيقوم بشكر ذلك، ويكافئ عليه أحسن المكافأة.

وربما حذر العاقل الناس ولم يأمن على نفسه أحدًا منهم.

وقد يأخذ ابن عرس فيدخله في كمه ويخرجه من الآخر، كالذي يحمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئًا انتفع به، ومطعمه منه.

وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر صغيرًا ولا كبيرًا من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم، ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم.

وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة احتفروا ركية فوقع فيها رجل صائغ وحية وقرد وببر، ومر بهم رجل سائح فأشرف على الركية، فبصر بالرجل والحية والببر والقرد، ففكر في نفسه، وقال: لست أعمل لآخرتي عملًا أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء.

فأخذ حبلًا وأدلاه إلى البئر فتعلق به القرد لخفته فخرج.

ثم دلاه ثانية، فالتفت به الحية فخرجت.

ثم دلاه ثالثًا فتعلق به الببر فأخرجه.

فشكرن له صنيعه.

وقلن له: لا تخرج هذا الرجل من الركية؛ فإنه ليس شيء أقل شكرًا من الناس، ثم هذا الرجل خاصةً.

ثم قال له القرد: إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها: نوادرخت.

فقال له الببر: أنا أيضًا في أجمة إلى جانب تلك المدينة.

قالت الحية: أنا أيضًا في سور تلك المدينة.

فإن أنت مررت بنا يومًا من الدهر، واحتجت إلينا فصوِّت علينا حتى نأتيك فنجزيك بما أسديت إلينا من معروف.

فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا له من قلة شكر الإنسان، وأدلى الحبل، فأخرج الصائغ، فسجد له، وقال له: لقد أوليتني معروفًا.

فإن أتيت يومًا من الدهر لمدينة نوادرخت فاسأل عن منزلي: فأنا رجل صائغ لعلي أكافئك بما صنعت إليّ من معروف.

فانطلق إلى مدينته وانطلق السائح إلى جانبه، فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له الحاجة إلى تلك المدينة، فانطلق، فاستقبله القرد، فسجد له وقبّل رجليه، واعتذر إليه، وقال: إن القرود لا يملكون شيئًا، ولكن اقعد حتى آتيك، وانطلق القرد، وآتاه بفاكهة طيبة، فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته، ثم إن السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة فاستقبله الببر، فخرَّ له ساجدًا، وقال له: إنك قد أوليتني معروفًا، فاطمئن ساعة حتى آتيك، فانطلق الببر فدخل في بعض الحيطان إلى بنت الملك فقتلها، وأخذ حليها، فأتاه بها، من غير أن يعلم السائح من أين هو.

فقال في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء، فكيف لو قد أتيت إلى الصائغ فإنه إن كان معسرًا لا يملك شيئًا فسيبيع هذا الحلي فيستوفي ثمنه، فيعطيني بعضه، ويأخذ بعضه، وهو أعرف بثمنه، فانطلق السائح فأتى إلى الصائغ، فلما رآه رحب به وأدخله إلى بيته، فلما بصر بالحلي معه، عرفه وكان هو الذي صاغه لابنة الملك.

فقال للسائح: اطمئن حتى آتيك بطعام فلست أرضى لك ما في البيت، ثم خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتي؛ أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك، فتحسن منزلتي عنده، فانطلق إلى باب الملك، فأرسل إليه: إن الذي قتل ابنتك وأخذ حليها عندي، فأرسل الملك وأتى بالسائح فلما نظر الحلي معه لم يمهله، وأمر به أن يعذب ويطاف به في المدينة، ويصلب، فلما فعلوا به ذلك جعل

السائح يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أني أطعت القرد والحية والببر فيما أمرنني به وأخبرنني من قلة شكر الإنسان لم يصر أمري إلى هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول، فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها فعرفته، فاشتد عليه أمره، فجعلت تحتال في خلاصه، فانطلقت حتى لدغت ابن الملك، فدعا الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئًا.

ثم مضت الحية إلى أخت لها من الجن، فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف، وما وقع فيه -فرقَّت له، وانطلقت إلى ابن الملك، وتخايلت له.

وقالت له: إنك لا تبرأ حتى يرقيك هذا الرجل الذي قد عاقبتموه ظلمًا، وانطلقت الحية إلى السائح فدخلت عليه السجن، وقالت له: هذا الذي كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان، ولم تطعني.

وأتته بورق ينفع من سمِّها.

وقالت له: إذا جاءوا بك لترقي ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق؛ فإنه يبرأ.

وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه؛ فإنك تنجو إن شاء الله تعالى، وإن ابن الملك أخبر الملك أنه سمع قائلًا يقول: إنك لن تبرأ حتى يرقيك هذا السائح الذي حبس ظلمًا، فدعا الملك السائح، وأمره أن يرقي ولده، فقال: لا أحسن الرقيا، ولكن اسقه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى، فسقاه فبرئ الغلام، ففرح الملك بذلك: وسأله عن قصته، فأخبره.

فشكره الملك، وأعطاه عطية حسنة، وأمر بالصائغ أن يصلب، فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر، ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصائغ بالسائح، وكفره له بعد استنقاذه إياه، وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إياه -عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا لما في ذلك من صواب الرأي، وجلب الخير، وصرف المكروه.

باب ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل.

فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله، ورأيه، وتثبتة في الأمور كما يزعمون، فما بال الرجل الجاهل يصيب البلاء والضر؟ قال بيدبا: كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه، ولا يسمع إلا بأذنيه، كذلك العمل، إنما هو بالحلم والعقل والتثبت، غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك.

ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا في طريق واحدة: أحدهم ابن الملك، والثاني ابن تاجر، والثالث ابن شريف ذو جمال، والرابع ابن أكَّار.

وكانوا جميعًا محتاجين، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد في موضع غربة لا يملكون إلا ما عليهم من الثياب.

فبينما هم يمشون إذ فكروا في أمرهم، وكان كل إنسان منهم راجعًا إلى طباعه، وما كان يأتيه منه الخير، قال ابن الملك: إنما أمر الدنيا كله بالقضاء

والقدر، والذي قُدِّر على الإنسان يأتيه على كل حال، والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور.

وقال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء.

وقال ابن الشريف: الجمال أفضل مما ذكرتم.

ثم قال ابن الأكّار: ليس في الدنيا أفضل من الاجتهاد في العمل، فلما قربوا من مدينة يقال لها: مطرون جلسوا في ناحية منها يتشاورون، فقالوا لابن الأكار: انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعامًا ليومنا هذا.

فانطلق ابن الأكار، وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر فعرَّفوه أنه ليس في تلك المدينة شيء أعز من الحطب، وكان الحطب منها على فرسخ.

فانطلق ابن الأكار فاحتطب طنًّا من الحطب، وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعامًا وكتب على باب المدينة: عمل يوم واحد إذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم، ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا.

فلما كان من الغد: قالوا ينبغي للذي قال: إنه ليس شيء أعز من الجمال أن تكون نوبته.

فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة، ففكر في نفسه، وقال: أنا لست أحسن عملًا فما يدخلني المدينة؟ ثم استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعام، وهمَّ بمفارقتهم، فانطلق حتى أسند ظهره إلى شجرة عظيمة، فغلبه النوم فنام.

فمر به رجل من عظماء المدينة فراقه جماله وتوسم فيه شرف النِّجَّار فرقَّ له، ومنحه خمسمائة درهم.

فكتب على باب المدينة: جمال يوم واحد يساوي خمسمائة درهم.

وأتى بالدراهم إلى أصحابه.

فلما أصبحوا في اليوم الثالث، قالوا لابن التاجر: انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئًا.

فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البَحر كثيرة المتاع قد قدمت إلى الساحل، فخرج إليها جماعة من التجَّار يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع.

فجلسوا يتشاورون في ناحية من المركب، وقال بعضهم لبعض: ارجعوا يومنا هذا لا نشتري منهم شيئًا حتى يكسد المتاع عليهم فيرخصوا علينا، مع أننا محتاجون إليه، وسيرخص.

فخالف الطريق وجاء إلى أصحاب المركب، فابتاع منهم ما فيه بمائة ألف دينار نسيئة، وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلى مدينة أخرى.

فلما سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم، فأربحوه على ما اشتراه مائة ألف درهم، وأحال عليهم أصحاب المركب بالباقي، وحمل ربحه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة: عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم.

فلما كان اليوم الرابع قالوا لابن الملك: انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك.

فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب لمدينة فجلس على متكأ في باب المدينة، واتفق أن ملك تلك الناحية مات، ولم يخلف ولدًا، ولا أحدًا ذا قرابة.

فمرُّوا عليه بجنازة الملك، ولم يحزنه وكلهم يحزنون.

فأنكروا حاله وشتمه البواب، وقال له: من أنت يا هذا؟ وما يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك؟ وطرده البواب عن الباب، فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه.

فلما دفنوا الملك ورجعوا بصر به البواب فغضب، وقال له: ألم أنهك عن الجلوس في هذا الموضع؟ وأخذه وحبسه.

فلما كان الغد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون فيمن يملكونه عليهم، وكلٌّ منهم يتطاول ينظر صاحبه، ويختلفون بينهم.

فقال لهم البواب: إني رأيت أمس غلامًا جالسًا على الباب، ولم أره يحزن لحزننا، فكلمته فلم يجبني، فطردته عن الباب.

فلما عدت رأيته جالسًا فأدخلته السجن مخافة أن يكون عينًا.

فبعثت أشراف أهل المدينة إلى الغلام فجاءوا به، وسألوه عن حاله، وما أقدمه إلى مدينتهم.

فقال: أنا ابن ملك فويران، وإنه لما مات والدي غلبني أخي على المُلك، فهربت من يده حذرًا على نفسي حتى انتهيت إلى هذه الغاية.

فلما ذكر الغلام ما ذكره من أمره عرفه من كان يغشى أرض أبيه منهم، وأثنوا على أبيه خيرًا.

ثم إن الأشراف اختاروا الغلام أن يملكوه عليهم ورضوا به.

وكان لأهل تلك المدينة سُنَّة إذا ملكوا عليهم ملكًا حملوه على فيل أبيض، وطافوا به حوالي المدينة.

فلما فعلوا به ذلك مرَّ بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب فأمر أن يكتب: إن الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب الرجل في الدنيا من خيرٍ أو شر إنما هو بقضاء وقدر من الله عزّ وجلَّ.

وقد ازددت في ذلك اعتبارًا بما ساق الله إليَّ من الكرامة والخير.

ثم انطلق إلى مجلسه فجلس على سرير ملكه، وأرسل إلى أصحابه الذين كان معهم، فأحضرهم فأشرك صاحب العقل مع الوزراء، وضمَّ صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع، وأمر لصاحب الجمال بمالٍ كثير ثم نفاه؛ كي لا يفتتن به.

ثم جمع علماء أرضه وذوي الرأي منهم، وقال لهم: أما أصحابي فقد تيقنوا أن الذي رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير إنما هو بقضاء الله وقدره، وإنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه؛ فإن الذي منحني الله وهيأه لي إنما كان بقدر، ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد، وما كنت أرجو إذ طردني أخي أن يصيبني ما يعيشني من القوت فضلًا عن أن أصيب هذه المنزلة، وما كنت أؤمل أن أكون بها؛ لأني قد رأيت في هذه الأرض من هو أفضل مني حسنًا وجمالًا، وأشد اجتهادًا، وأسد رأيًا، فساقني القضاء إلى أن اعتززت بقدر من الله، وكان

في ذلك الجمع شيخ فنهض حتى استوى قائمًا، وقال: إنك قد تكلمت بكلام كامل عقل وحكمة، وإن الذي بلغ بك ذلك وفور عقلك وحسن ظنّك، وقد حققت ظننا فيك ورجاءنا لك.

وقد عرفنا ما ذكرت، وصدقناك فيما وصفت.

والذي ساق الله إليك من المُلكِ والكرامة كنت أهلًا له، لما قسم الله تعالى لك من العقل والرأي، وإن أسعد الناس في الدنيا والآخرة من رزقه الله رأيًا وعقلًا.

وقد أحسن الله إلينا إذ وفق لنا عند موت ملكنا وكرَّمنا بك.

ثم قام شيخ آخر سائح فحمد الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه، وقال: إني كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحًا، رجلًا من أشراف الناس.

فلما بدا لي رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين، فأردت أن أتصدق بأحدهما، وأستبقي الآخر، فأتيت السوق، فوجدت مع رجل من الصيادين زوج هدهد، فساومت فيهما فأبى الصياد أن يبيعهما إلا بدينارين، فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار واحد فأبى.

فقلت في نفسي: أشتري أحدهما وأترك الآخر.

ثم فكرت وقلت: لعلهما يكونا زوجين ذكرًا وأنثى فأفرق بينهما، فأدركني لهما رحمة، فتوكلت على الله، وابتعتهما بدينارين، وأشفقت إن أرسلتهما في أرض عامرة أن يصادا، ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهزال، ولم آمن عليهما الآفات.

فانطلقت بهما إلى مكان كثير المرعى والأشجار بعيد عن الناس والعمران، فأرسلتهما، فطارا ووقعا على شجرة مثمرة.

فلما صارا في أعلاها شكرا لي، وسمعت أحدهما يقول للآخر: لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذي كنا فيه، واستنقذنا ونجّانا من الهلكة.

إنا لخليقان أن نكافئه بفعله، وإنّ في أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنانير، أفلا ندله عليها فيأخذها؟ فقلت لهما: كيف تدلانني على كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة؟ فقالا: إن القضاء إذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشّى البصر، وإنما صرف القضاء أعيننا عن الشَّرَك، ولم يصرفها عن هذا الكنز.

فاحتفرت واستخرجت البرنية وهي مملوءة دنانير، فدعوت لهما بالعافية، وقلت لهما: الحمد لله الذي علّمكما ما لم تعلما، وأنتما تطيران في السماء، وأخبرتما بما تحت الأرض.

قالا لي: أيها العاقل، أما تعلم أن القدر غالب على كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يتجاوزه، وأنا أخبر الملك بذلك رأيته، فإن أمر الملك أتيته بالمال فأودعته في خزائنه، فقال الملك: ذلك لك، وموفّر عليك.

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه.

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلًا في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره، ولا يراه لنفسه.

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل الحمامة، والثعلب، ومالك الحزين.

قال الملك: وما مثلهن؟

قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة، فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة؛ لطول النخلة وسحقها، فإذا فرغت من النقل باضت، ثم حضنت بيضها، فإذا فقست، وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما ينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها، ويتوعدها أن يرقى إليها، فتلقي إليه فراخها.

فبينما هي ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين، فوقع على النخلة.

فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين: يا حمامة، ما لي أراكِ كاسفة اللون، سيئة الحال؟ فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلبًا دهيت به، كلما كان لي فرخان جاء يهددني ويصيح في أصل النخلة، فأفرق منه فأطرح إليه فرخي.

قال لها مالك الحزين: إذا أتاكِ ليفعل ما تقولين، فقولي له: لا ألقي إليك فرخي، فارقَ إليَّ وغرر بنفسك.

فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي، طرت عنك ونجوت بنفسي.

فلما علَّمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر.

فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف، فوقف تحتها، ثم صاح كما كان يفعل.

فأجابته الحمامة بما علَّمها مالك الحزين.

قال لها الثعلب: أخبريني من علَّمك هذا؟ قالت: علمني مالك الحزين.

فتوجَّه الثعلب إلى مالكًا الحزين على شاطئ النهر، فوجده واقفًا.

فقال له الثعلب: يا مالك الحزين، إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال: عن شمالي.

قال: فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك.

قال: أجعله عن يميني، أو خلفي.

قال: فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله؟ قال: أجعله تحت جناحي.

قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيأ لك.

قال: بلى: قال: فأرني كيف تصنع؟ فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا.

إنكن تدرين في ساعة واحدة مثلما ندري في سنة، وتبلغن ما لا نبلغ، وتدخلن رءوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح.

فهنيئًا لكنَّ فأرني كيف تصنع.

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه.

ثم قال: يا عدو نفسه، ترى الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك، حتى يستمكن منك عدوك، ثم أجهز عليه وأكله.

فلما انتهى المنطق للملك والفيلسوف إلى هذا المكان سكت الملك.

فقال له الفيلسوف: أيها الملك عشت ألف سنة، وملكت الأقاليم السبعة، وأعطيت من كل شيء سببًا، مع وفور سرورك وقرة عين رعيتك بك، ومساعدة القضاء والقدر لك، فإنه قد كمل فيك الحلم والعلم.

وزكا منك العقل والقول والنية، فلا يوجد في رأيك نقص، ولا في قولك سقط ولا عيب.

وقد جمعت النجدة واللين، فلا توجد جبانًا عند اللقاء، ولا ضيق الصدر عندما ينوبك من الأشياء.

وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور، وشرحت لك جواب ما سألتني عنه منها فأبلغتك في ذلك غاية نصحي، واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ فطنتي، التماسًا لقضاء حقك وحسن النية منك بإعمال الفكرة والعقل، فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة مع أنه ليس الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح، ولا المعلم للخير بأسعد من متعلمه منه.

فافهم ذلك أيها الملك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهرس



الناشر
شركة نوابغ الفكر
للنشر والتوزيع والتصدير
عمارة ١٩ القطامية (القاهرة)
هاتف : ٢٥٩٣٦٤٠٢ ، فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
e-mail : nawabgh_elfakr@hotmail.com